

اللغة بين الفرد والمجتمع

د. عبد الغفار حامد هلال

مدخل :

وهذا الانتماء يأخذ أشكالا متعددة ، فهو - أحيانا - سياسي ، أو جغرافي ، أو جنسي ، أو لغوي ، وقد تعددت المصطلحات السياسية التي تطلق على تلك الجماعات⁽³⁾ .

بيد أننا نعني - هنا - جماعة خاصة ، من وجهة نظر خاصة هي ما نسميها (الجماعة اللغوية) ، وهي : هيئة اجتماعية ، صغر حجمها ، أو كبر ، أو بعبارة أخرى تندرج من الصغر إلى الكبر ، فهي تبدأ بالأسرة ثم العائلة ، ثم القبيلة ، ثم الأمة .

ولا يهمننا كثيرا الاختلاف السياسي أو الديني إذا توفر الاشتراك اللغوي⁽⁴⁾ .

ويمكن أن تقسم الوحدات الكبيرة إلى وحدات

الإنسان مدني بطبعه - كما يقول علماء الاجتماع - فهو يميل إلى الانتماء إلى طائفة من بني جنسه ، ليجتمع لهم جملة من الخصائص ، والسيات ، التي تميز جماعة عن غيرها ، ومبعث ذلك الغريزة التي ركب عليها الإنسان ، والتي تدفعه إلى تكوين هيئة اجتماعية ولذا يمكن لاثنين من شعبين مختلفين أن يأتلفا على بعض الخصائص ، ويتناسيا الفروق الموجودة بين شعبيهما إذا عاشا معا مدة طويلة ، كفرنسي وفارسي أو عربي وإنجليزي مثلا⁽¹⁾ .

وانتماء الفرد للجماعة يتحدد بتحدد الجماعة ذاتها ، فالأسرة جماعة ، والقرية جماعة أشمل ، والمقاطعة ، ثم الدولة ، وأخيرا الجنس البشري⁽²⁾ .

(1) فندريس : اللغة ص 302 .

(2) جيسرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 2 .

(3) من هذه المصطلحات : (الشعب) و(الدولة) و(الأمة) فالشعب : جماعة من الناس تستقر على أرض واحدة ، أو تخضع لسلطة واحدة ، والدولة تعبير سياسي وقانوني يشير إلى الوحدة السياسية التي تضم أركاناً ثلاثة هي : (شعب وإقليم وسلطة سياسية) . والأمة : جماعة من الناس يرتبطون بأهداف مشتركة ويتبادلون الشعور بأنهم وحدة بشرية اجتماعية واحدة ، نتيجة التقائهم في عدد من العناصر ، كالأصل واللغة والدين ، ووحدة التاريخ ..

وقد نسمي إحدى الجماعات (شعباً ودولة وأمة) ، وقد تسمى (شعباً ودولة) لا (أمة) كسكان سويسرا ، وقد تمزق الأمة بخضوعها لعدة سلطات سياسية ولا يعني هذا فناء الأمة كالأمة البولونية بعد تمزقها على يد جاراتها بعد أواسط القرن الثامن عشر ، وكذلك العالم العربي أمة ، وإن توزعت السلطة فيه .

انظر : د. أحمد كمال أبو المجد : دراسات في المجتمع العربي والوحدة العربية ص 24 - 29 .

(4) جيسرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 52 .

لوحظ أن اللغة ترتبط بالجماعات الناطقة بها ، ويمكن أن يتبدى على إثر هذا الإدراك إلى معرفة خصائص الجماعات البشرية من دراستنا للغات وتاريخها ، وتطوراتها .

أثر الفرد في اللغة

«اللغة هي الصورة اللغوية المثالية التي تفرض نفسها على جميع الأفراد في مجموعة واحدة»⁽⁸⁾ .

والفرد والجماعة عنصران لا ينفصل أحدهما عن الآخر . فالفرد يرتبط بجماعته ويقدم ما يقدمون ، ويأتي من الأفعال التقليدية ما يأتون وهو يتبع عرف الجماعة ، وإن خالف اعتقاده⁽⁹⁾ . وإذا سلمنا «بوجود الفرد واجتمع . باعتبار كل منها وحدة مستقلة ، فإن من الممكن من الجانب اللغوي أيضا ، أن نتكلم عن اللغة الفردية . واللغة الجماعية ، وكلا هذين العنصرين يؤثر ، ويتأثر بالعنصر الآخر»⁽¹⁰⁾ .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، تنشأ عند الأفراد ، والجماعات ، ودراستها تتسم بالبحث في الجانب الفردي ، والجانب الجماعي ، وإن كان علماء الاجتماع يقفون من ذلك موقفين متعارضين .

فيرى بعضهم : أن التعرف على الفرد يؤدي إلى التعرف على الجماعة ، ولذا تدرس لغة الفرد ، ويتوصل من خلالها إلى معرفة لغة الجماعة ، لأنها مجموع الظواهر المشتركة بين جميع الأفراد .

ويقول أوجست كونت (ليس من الضروري أن نعرف ما هو الإنسان حتى نعرف ما هي الإنسانية ولكن من الضروري أن نعرف ما هي الإنسانية حتى نعرف ما هو الإنسان) .

صغيرة ، وننظر إلى كل وحدة في إطار اللغة التي تتحدث بها ، في القرية ، أو المدينة ، والطبقات الاجتماعية المتنوعة من المتعلمين والفلاحين ، وأصحاب المهن ، والأشقياء وغيرهم .

«وتلعب اللغة (دورا ذا أهمية عظمى في الجماعة الاجتماعية) مهما كانت ومهما كان مقدار امتدادها ، فاللغة أوثق العرى التي تجمع بين أعضاء هذه الجماعة ، وهي — على الدوام — رمز ما بينهم من تشارك ، وحارسه الأمين ، وأية آلة أفعال من اللغة في توطيد وجود الجماعة ؟ فاللغة بمرونتها ، وتنوع حياتها ، ولطف سريانها ، واختلاف استعمالها ، وسيلة للاتفاق بين الجماعة ، وعلامة لأعضاء هذه الجماعة ، بها يعرف بعضهم بعضا . ويبرع بعضهم إلى بعض»⁽⁶⁾ .

وبديهي أن اللغة هي الأداة التي يستعملها أفراد كل جماعة لغوية ، للتعبير عما يهمهم من شئون ، وهي قانون من قوانين هذه الجماعة ، يعد الخروج عليه أمرا صعبا ، ومحرجا ، ومؤديا إلى السخرية ، ويقاوم بصرامة من بقية أفرادها⁽⁶⁾ .

«وان هبة الكلام واللغة من خصائص المجموعات الإنسانية ، ولم يعثر قط على جماعة بلا لغة وحقيقة هذه المسألة أن اللغة وسيلة تعبيرية واتصالية كاملة بالضرورة كما تلاحظ ذلك في كل مجتمع معروف»⁽⁷⁾ .

ولم يكن يدرك قديما ما للغة من صلوات بالمجتمع الذي تعيش فيه ، لأنهم اعتبروها هبة إله التي لا يحق لأحد أن يغير فيها ، أو يعدل من طرائقها ، ثم درست على هذا الأساس فترة من الزمان ، ولكن بعد تقدم العلوم الإنسانية ، وأدراك حقائق الظواهر الاجتماعية

(5) فندريس : اللغة ص 303 ، 304 .

(6) نفس المرجع السابق .

(7) د. تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 112 نقلا عن ادوارد سابير .

(8) فندريس : اللغة ص 306 .

(9) جسرمن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 2 .

(10) نفسه ص 5 .

عدة عقول فردية ، قد تأثرت بظروف ، ودوافع متشابهة ، ولست أدري لماذا يقول دي سوسير (العقل الجمعي) ولا يقول (البطن الجمعي) والرجل الجمعي والأنف الجمعي ، إذ ليست لذلك فائدة .

فاللغة ليست القاعدة ، وليست الألفاظ ذاتها ، بل هي شيء آخر يتمثل في الصور الذهنية الموجودة لهذه القواعد ، والألفاظ ، في نفوس أفراد الجماعة ، لا في العقل الجمعي . ويقرب من ذلك قول دي سوسير في عبارة أخرى (اللغة هي مجموعة من صور الألفاظ مختزنة في نفوس أفراد الجماعة اللغوية)⁽¹⁴⁾ .

وينتهي جيسرسن - بعد الرد على دي سوسير - إلى أن اللغة ليست شيئا آخر غير الكلام ، بل هي الكلام ذاته ، ولكن باعتبار آخر .

ويبدو أن النظريتين متقاربتان ، فالفرد جزء من الجماعة ، والجماعة طائفة من الأفراد ، والكلام واللغة مرتبطان أحدهما بالآخر ولا يستطيع باحث أن يفرق بينهما أو يعزل أحدهما عن الآخر ، فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بين فكرتين تفريقا حقيقيا بلا علامات لغوية ، أي كلمات ، فالتفكير بلا كلمات تائم⁽¹⁵⁾ «والكلمات أهم مكونات اللغة وتسمى وحدات لها»⁽¹⁶⁾ وما يسميه النحاة أقسام الكلام وهم يقصدون الاسم والفعل والحرف ليس في الواقع إلا أقسام اللغة ، فقول صاحب الالفية الكلام وما يتألف منه يجب أن يصير إلى اللغة وما تتألف منه⁽¹⁷⁾ فالكلام الذي هو نشاط إنساني قطعي نتيجة لارادة المتكلم⁽¹⁸⁾ يعد الباعث لكلمات اللغة ، بحيث يجعلها حية بعد موتها ، ووجودها في طوايا العقل ، أو المعاجم فاللغة بماذاتها المكونة لها توجد

فالتعرف على الجماعة يؤدي إلى التعرف على الفرد ، ومن هنا تعد دراسة اللغة العامة أساسا لمعرفة لغة الأفراد⁽¹¹⁾ .

وقد دار نقاش ، وجدل بين الباحثين حول اللغة والكلام ، وجعلتها بالعقل الفردي ، والعقل الجمعي .

فيرى دي سوسير⁽¹²⁾ أن اللغة غير الكلام ، فاللغة مجموعة محدودة من المفردات ، والتراكيب ، توجد في كتب القواعد والقواميس ، وتحتزن في عقل الجماعة ، والكلام نشاط فردي ، يختلف من فرد إلى آخر ، من أبناء الجماعة اللغوية الواحدة .

والفرد يولد بلا لغة ، ثم يرثها من جماعته ، ولا يملك التدخل في اختيار مفرداتها أو تنظيم قواعدها .

وعلى الرغم من اختلاف الكلام واللغة فإن لكل منهما علاقة وثيقة بالآخر ، واللغة ذاتها تتطور بتطور الكلام .

وقد قال بالي (تلميذ دي سوسير) : ان الكلام نشاط لغوي فردي يعالج الحياة الواقعية للفرد ، ومن ثم فهو وحده الذي يعبر عن الواقعية ، والعاطفية ، بعكس اللغة التي ليست سوى امكانيات تعبيرية .

ومن هنا فإن دي سوسير يرى أن اللغة من نتاج المجتمع ، والكلام من نتاج الأفراد ، وإذا صح أن يكون هناك عقل فردي . فهناك كذلك عقل جمعي .

وقد اعترض جيسرسن⁽¹³⁾ على هذا التفريق ، وقال : ان العقل خاصة توجد للفرد ، لا للجماعة ، والفرد له سلوك وحده ، وسلوك مع الجماعة ، حسب الظروف التي تمر به . ولا يعدو الاتفاق في العاطفة أو الرأي في جماعة من الجماعات أن يكون مجرد اتفاق في حكم يصدر عن

(11) جيسرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 2 .

(12) عالم لغوي سويسري .

(13) عالم لغوي دانيمركي .

(14) جيسرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 15 - 23 .

(15) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص 244 .

(16) نفسه ص 39 .

(17) نفسه ص 40 .

(18) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص 39 .

لدى أي طفل في أي مكان لغة فطرية⁽²³⁾ وهو يتعلم لغة المجتمع الذي يعيش فيه، فاللغة ليست وراثية، بل إنه يتلقاها ممن يحاط بهم، ولذا فإن طفلاً عربياً نُشئ في بيئة إنجليزية تعلم لغة الإنجليز. والعكس صحيح أيضاً⁽²⁴⁾ «بل أكثر من هذا أن العلم يزخر بمجالات كثيرة للأطفال ترعرعوا لدى الحيوانات كالذئاب والفهود والديبة. وحتى الخرفان. وتعلموا أنواعاً من اللغة الحيوانية. فعوموا كالذئاب، وثغوا كالخرفان، وأصبح من الصعب بعدئذ تعليمهم اللغة الإنسانية⁽²⁵⁾».

فالأطفال يتعلمون لغة الجماعة التي يولدون ويعيشون فيها بنفس السرعة التي يتعلمها بها أهلها الأصليون، ويتكلمونها كما يتكلمها أهلها الأصليون⁽²⁶⁾.

وقد توصلت طائفة من اللغويين إلى بعض الملاحظات المهمة التي تتعلق بلغة الطفل، وأهمها التقسيم الثلاثي الذي ارتضاه جسرمن، وهو أن النمو اللغوي للطفل يمر بثلاث مراحل:

- (1) مرحلة الصباح.
- (2) مرحلة البأبأة.
- (3) مرحلة الكلام.

المرحلة الأولى (الصباح):

فالطفل يصرخ منذ يولد، ولكن هذا الصراخ الصادر عن جهازه النطقي ليس كلاماً، ولا يتعلم الطفل به أية

في القواميس أو تختزن في عقول الجماعة الإنسانية التي تتخذها وسيلة للتفاهم ولها قواعد خاصة يفهمها أصحابها، ويراعونها في استعمالهم من ناحية النظام الصوتي، والصرفي، والنحوي. واللغة بهذا الوصف تسمى بـ(اللغة المعنية)⁽¹⁹⁾ التي هي نتاج جماعي يستعمله الأفراد، «وللكلام علاقة باللغة المعنية، ولذلك يجب أن يدخل في الدراسة لأنه الجانب العملي منها»⁽²⁰⁾.

ومن المتعارف عليه بين دارسي العلوم الاجتماعية أن جميع الأحداث الاجتماعية تبدأ فردية. ثم لا تلبث أن تشيع بين عدد من الأفراد، ثم يتسع نطاقها فتتخذ صفة الجمعية⁽²¹⁾.

والمدرسة اللغوية الإنجليزية، وضعت لدراسة أية لغة طريقة وصفية. تهتم بالشخص والشخصية. لكن لا تنظر إليه باعتباره «مستقلاً» وإنما تدخل في حسابها أنه عضو في جماعة كلامية معينة⁽²²⁾.

ولا ريب أن جوانب التأثير في اللغة كثيرة. بعضها ينشأ عن الأفراد، وبعضها يرجع إلى المجتمع. وللتأثير الفردي مظاهر عدة، فهو يتناول: الأصوات، والمفردات، والتراكيب.

1 - أثر الفرد في الأصوات

تبدأ الممارسة اللغوية للإنسان منذ طفولته. فالطفل يولد وعنده الاستعداد لتلقي اللغة - أية لغة إذ لا توجد

- (19) فندريس: اللغة ص 303، 304.
- (20) د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة ص 32 - 35.
- (21) جسرمن: اللغة بين الفرد والمجتمع ص 20، 21.
- (22) د. السمران: اللغة والمجتمع ص 25 - 31.
- (23) كندراتوف: أصوات وإشارات ص 191.
- (24) فندريس: اللغة ص 298.
- (25) كندراتوف: أصوات وإشارات ص 191، 192.

(26) فاللغة «مكتسبة» ولكن أئمة دخل للوراثة في قدرة الأطفال على اكتساب اللغة؟ وهل للوراثة شأن في اكتساب طفل لغته أسرع من اكتساب طفل غيره نفس اللغة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ونظائره مرهونة بتقدم بحوث علم الوراثة، وعلم الأعصاب وعلم الحياة العام (الأحياء: البيولوجيا) إذ البحث فيها لما يصل إلى الغاية المنشودة، ويتنظر أن تؤدي البحوث المقبلة فيها إلى أن يزداد فهمنا لطبيعة اللغة ووظيفتها.

انظر: د. السمران: اللغة والمجتمع ص 27، 34.

لغة ، لجماعته أو لغيرها من الجماعات البشرية .

وهذا الصياح مشترك بين جميع الأطفال ، ولا يؤدي - في أوله - غرضاً ولكنه يتطور بعد ذلك ، فيستخدمه الطفل في التعبير العام عن كل ما يهيمه وبخاصة عندما يدرك من حوله أثره فيهم .

وهذه الأصوات تدرّب عضلاته ، وجهازه الصوتي على الكلام فينتقل إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية (البأبة) :

وفيها يصدر الطفل مجموعات من الأصوات مثل أ - م - ب - ت - د - د الخ .

وتكون في أولها نشاطاً عضلياً خالصاً ، ثم تأخذ أعضاء النطق عنده شيئاً فشيئاً في التدرّب عليها ، والتحكّم فيها فيستطيع الطفل نطق الصوت الذي يريده . ويأخذ الطفل - بعد ذلك - في تدرّب عضلاته الصوتية على النطق بهذه الأصوات التي يستمتع بها هو ومن حوله .

والشائع أن أول ما ينطقه الطفل صوائت مفردة ، أو صوائت يسبق كلا منها صوامت مثل (ل - ر - ت الخ) «وتعدّ الصوائت الشفوية التي يرمز إليها بـ p, b, m (ب) ، ب ، م) من الصوائت الأولى التي ينطقها الطفل ، ان لم تكن أولها على الإطلاق» وفي هذه المرحلة ربما صدرت عن الطفل أصوات ليست من مجموع الأبجدية التي نستعملها جماعته مثل (P, v) عند طفل عربي مثلاً ، بيد أنه ينطق عدداً كبيراً من أصوات أبجدية قومه .

المرحلة الثالثة (الكلام) :

تبدأ من حوالي نهاية السنة الأولى ، وتمتد سنوات طويلة ويمر خلالها بمرحلتين .

1 - فترة اللغة الصغيرة :

وفيها يحاول تقليد من حوله ، ويبعد كثيراً عن الأصل الذي يقلده ، كأن يقول الطفل المصري (م م) بدلاً من

(الأكل) (امبو) بدلاً من (ميه) و(ب) بدلاً من (عيش) مثلاً وقد سمعت ابني في تلك المرحلة يقول (مكّن) بدلاً من (مطيخ) .

ب - فترة اللغة المشتركة :

وفيها ينظم كلامه كثيراً ، ويظل وقتاً طويلاً حتى يصير كلامه مثل الكبار .

ولاشك أن الطفل في تلك المرحلة يحرف كثيراً من الكلمات ويتصرف فيها حسب قوانينه الصوتية .

فيقول مثلاً (ستينه) مكان (سكينه) و(تتاب) مكان (كتاب) .

وقد لاحظت أن ابني في أول هذه المرحلة - يميل إلى قلب بعض الكلمات فيقول (تعبل) مكان (ثعلب) ...

وبعض الأصوات اللغوية قد يخفى على الطفل ، أو يظل صعب النطق لا يتقنه إلا في مرحلة متأخرة كصوت الراء أو السين في بعض الأحيان .

وكثيراً ما يكتفي الطفل ببعض مقاطع الكلمة ، عن نطقها كاملة فقد سمعت ابني يقول (كب) مكان (كلب) و(بايه) مكان (كباية) ونحوها .

ويستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يميز الكلام الذي يوجه إليه بحب وعطف من ذلك الذي يوجه إليه بحدة ، وغضب ، فيسر من الأول وينفر من الثاني .

والطفل لا يتعلم الأصوات مفردة ، وإنما يتعلم الجانب الصوتي للكلمات مرتبطاً بالمعاني .

وعادة ما يدرك معاني الكلمات التي تلقى عليه قبل أن يستطيع نطقها بزمّن طويل ، وهو يدرك المحسوسات قبل المعنويات .

وأخيراً يتعلم لغة جماعته بقدرته الفائقة على تقليد ما يلقى عليه من قبل أمه وأبيه وأسرته والمحيطين به ،

وينفي جوشات - كذلك - أن يكون للفرد - صغيراً أو كبيراً - أي أثر في التطور الصوتي فيقول : « ليس للفرد أي دخل في التطور الصوتي » وقد اعتمد في حكمه هذا على النتائج التي توصل إليها في بحث تتبع فيه الفروق الصوتية بين أفراد الجماعة اللغوية التي تقم في المنطقة الفرنسية من سويسرا المجاورة لمدينة (بول) Bulle في مقاطعة قريبورج لبيان تأثير الفرد في اللغة ، وكانت تلك المنطقة معزولة تماماً عن المناطق الأخرى المجاورة لها .

وقد اكتشف جوشات فروقا كبيرة في طريقة النطق بين أبناء الجزء الأول من هذه المنطقة ، ولما انتقل إلى جزء آخر يبعد عن الجزء الأول مسافة ثلاثة أميال وجد فروقا صوتية بين أفرادهم تماثل الفروق التي وجدها بين أفراد الجزء الأول . وكذلك كان الحال في الجزء الذي يليه ، والذي يليه .

وقد خرج جوشات من ذلك بأن الفروق ليست فروقا مكانية بمعنى أن اللغة في جزء ما من الأقليم تختلف عنها في جزء آخر . بل إنها كانت فروقا زمنية ، أي فروقا بين جيل وجيل . وأن الاختلاف اللغوي بين أبناء جيلين مختلفين في جزء واحد أكثر مما بين أبناء جيل واحد ، في جزءين مختلفين .

وبين أن المقارنة بين لغتي اثنين من الشيوخ - ينتمي أحدهما لجزء من هذا الأقليم يختلف عن الجزء الذي ينتمي إليه الآخر - تثبت تحقق التشابه في مخارج الحروف لديهما أكثر مما بين أحدهما ، وبين شباب الجزء الذي ينتمي إليه ولهذا قسم جوشات السكان ثلاثة أقسام .

(1) المعمرون :

وهم بين الستين والتسعين ، وهؤلاء ينطقون الكلمات بطريقة قديمة كثيرا ما تبدو غريبة لسواهم .

وينفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية شيئا فشيئا . وللطفل قياسه اللغوي في النواحي الصوتية والنحوية ، والمعنوية ، ومن ذلك التذكير والتأنيث ، فقد يتسرب إلى ذهنه أن المؤنث يكون بالتاء - كما هو العادة الشائعة - . فيطبق ذلك على بعض الكلمات التي لا تؤنث بالتاء وفق قواعد اللغة الصحيحة ، فإذا أراد تأنيث (أخضر) مثلا قال : (أخضرة) و(أحمر) قال (أحمره) .

وأخطاء كل طفل تختلف عن - أخطاء غيره من الأطفال الذين ينتمون إلى جماعته الكلامية وإن كانت ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا⁽²⁷⁾ .

وإذا كان الطفل يتلقى اللغة عن مخالطيه فهل لاخطائه أثر في أصوات اللغة ؟ وهل للأفراد - بصفة عامة - صغارا أو كبارا تأثير فيها ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال نقول :

يختلف الباحثون في نسبة التغير الصوتي إلى الأفراد .

فينفي (جوشات) أن يكون للطفل أي أثر في التطور الصوتي للغة فهو يقول : « إن كل لغة تتباين تبايناً خاصاً بين جيل وجيل يمكن للتطور في أصواتها ، وبذلك يخضع أبناء الجيل اللاحق من الراشدين - دون الأطفال - للتطور الجديد ، وليست الطفولة سوى مرحلة تقليد لغوي ولا أكثر ، وعندما يخطئ الطفل في نطق بعض الكلمات فليس ذلك بدء التطور في أصوات اللغة التي يتكلمها كما يزعم بعض الباحثين . وذلك لأن طبيعة اللغة كفيلا بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد ، ويتم ذلك عندما يكتمل نضوج الأعضاء الصوتية لدى الطفل وتتكيف طريقة سلوكها بصفة نهائية عند نطق مختلف الأصوات وهذا لا يتم قبل بلوغ الطفل سناً مناسبة ، أي عندما يتجاوز دور الطفولة»⁽²⁸⁾ .

(27) د. السمران : اللغة والمجتمع ص 34 - 54 ، د. وافي : علم اللغة ط 4 ص 110 - 155 ، د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 68 ، 69 وكندراتوف : أصوات وإشارات ص 190 - 193 .

(28) جيسرسن اللغة بين الفرد والمجتمع ص 45 .

(2) المحدثون :

وهم دون الثلاثين ، وهؤلاء ينطقون ألفاظهم بطريقة حديثة .

(3) المتوسطون :

وهم بين الثلاثين والستين ، وهؤلاء يكوّنون في نطقهم حداً أوسط بين العمرين والمحدثين ، ولقد لاحظ جوشات أن هؤلاء يستعملون الأصوات القديمة إلى جانب الأصوات الحديثة دون أن يكون لهم في اختيار هذا أو ذاك قاعدة خاصة ، كما لاحظ أنهم يلتزمون في بعض الكلمات طريقة النطق الحديث ، وفي بعضها الآخر طريقة النطق القديم .

أما النساء فقد كن أكثر ميلاً لاتباع طريقة النطق الحديث ، وقد حدا هذا بجوشات أن يقرر أن دور المرأة في التطور الصوتي أكبر خطراً من دور الرجل .

وقد أثبت جوشات أن الفرد ليس له أثر في التطور الصوتي ، بعد دراسة ما يبلغ خمسين لغة فردية لآبناء هذه المنطقة لم يتبين له من خلالها مثل هذا التأثير الفردي في تطور اللغة التي يتكلمها أبناء هذه الجماعة اللغوية .

وينسب جوشات التغيير الصوتي إلى الجماعة لا إلى الأفراد فيقول ان التغيير أمر حتمي طبيعي وليس أمراً خاصاً لارادة فرد متميز أو غير متميز ، ومعنى أنه أمر حتمي طبيعي أن يحدث لأول مرة بصفة غير فردية وذلك بأن ينطق النطق الجديد شخص في مكان ما ثم يقلد وينطقه في نفس الوقت شخص ثان في مكان ثان ، وثالث ورابع في مكانين ثالث ورابع ، ثم يقلدون وهكذا⁽²⁹⁾ .

ويتفق فندريس مع جوشات في هذه الوجهة التي تمنع أثر الفرد في الأصوات فيقول : «ساد شطراً طويلاً

(29) جيسرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 37 ، 38 .

(30) فندريس : اللغة ص 69 .

(31) جيسرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 37 - 44 .

(32) فندريس : اللغة ص 296 .

(33) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 94 .

من الزمن الاعتقاد بأن كل تغيير صوتي إنما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن إلا تغيراً فردياً ، ثم عمم ، وهذا ادراك للأشياء غير صحيح ، فليس في وسع أي فرد أن يفرض على جيرانه نطقاً تنبوعه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغيير صوتي . فلأجل أن يصير تغيير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعي لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل ان سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شيء ، فإن النطق الشاذ لا يجلب اتباعاً لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه⁽³⁰⁾ .

ويرى جيسرسن أن نفي التأثير الصوتي للأفراد غير مسلم به ، وأن البحث الذي أجراه جوشات يؤكد تدخل الفرد في التطور الصوتي ، فقد لاحظ جوشات من بحثه اختلاف النطق ، ووجود الفروق بين مختلف المناطق والأشخاص على مختلف الأعمار ، وهذا وحده كاف لإثبات أثر الفرد في الأصوات⁽³¹⁾ .

ولعل الدافع إلى انكار أثر الفرد في التطور الصوتي هو الجهل بنشأة التطورات الصوتية ، ولذا يقول فندريس «ان العالم اللغوي لا يعرف إلى أي مدى يحدد دراسته وإلى أنه يبقى متردداً بين الاعتبار الفردي والاعتبار الجنسي بأسره⁽³²⁾» ويقول الدكتور تمام (بالرغم من معرفة تاريخ بعض التغيرات الصوتية معرفة عامة لا يستطيع الانسان أن يقول عند أي حد معين بدأ هذا التغيير ، ولا نستطيع حتى أن نلفظن إلى التغيرات التي تأخذ مجراها الآن على غير وعي منا ، ولا نستطيع كذلك أن نقرر ما إذا كان تغيير ما قد بدأ فردياً ثم اتسع مدى تطبيقه ، أو أنه بدأ على السنة ناساً مختلفين ، ولا يستطيع نسبه إلى فرد معين منهم⁽³³⁾ .

والحقيقة التي لا يمكن انكارها أن التطور الصوتي

يعود في بعض نواحيه إلى الافراد ، وان لم يتعين الفرد الذي تابعه غيره ، فن الحق الذي لا ريب فيه - كما يقول فندريس - أن كل فرد يدخل في اللغة جزءا من التجديد خاصا به» (34).

ومن المسلم به «أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفرق ، واللغة محدودة بمحدود الفرد عند العالم الصوتي» (35) «وأن الفرد كما يقول الدكتور تمام حين ينفرد بنطق خاص يظل خلفه من بعده يبعد شيئا فشيئا عن نطق المجموع حتى يختلف عنه» (36).

قد شك أن عملية التغيير تحدث من فرد أو جملة أفراد ، ثم تنتقل منهم حتى تعمم ، فالجانب الفردي ملاحظ فيها ، ولا يمكن حتى لمن ينسب التغيير إلى الجماعة أن ينفيه مطلقا (37).

2 - أثر الفرد في المفردات والتراكيب :

أما أثر الفرد في المفردات والتراكيب فهو واقع لغوي يعترف به الباحثون فالطفل يسمع مفردات جديدة ، وتعابير جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة ، ان الصبي في المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسنا

(34) فندريس : اللغة ص 295 ، 296 .

(35) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 92 .

(36) نفس المرجع السابق ص 92 .

(37) في العربية الفصحى أصوات تحتاج إلى دقة الأداء ويتخلص منها بعض الناطقين كصوت القاف الذي تحول على لسان غير المثقفين بالعربية إلى (كاف) والذال تحولت في العامية إلى زاي أو دال وهكذا ، وبعض الظواهر اللغوية تؤدي إلى التطور الصوتي ، فظاهرة التضخيم أدت - مخالفة للفصحى - إلى نطق كلمة (دَرْب) : (ضرب) - في العامية - بتحويل (الذال إلى ضاد) .

(38) د. السمران : اللغة والمجتمع ص 57 . وانظر : جبرسن - اللغة بين الفرد والمجتمع ص 53 - وقد أثبت التجارب أن الاطفال يخترعون بعض الألفاظ والصيغ ونحن نسمع منهم كثيرا يرتجلون كلمات مركبة من حروف عدة .

انظر : د. أنيس : من أسرار اللغة ط 3 ص 87 - 89 وأحمد الاسكندري : فقه اللغة ص 30 .

(39) وقد اعترف علماء اللغة بوقوع الارتجال في اللغة العربية ، فالعربي الفصحح كان يخترع ألفاظا ويشق أخرى أو يقبسها متبعا طرق التجديد في ذلك ، ويروي عن رؤية وأبيه أنها كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سيقا إليها .

والباحث في العربية يعثر في بعض مصنفاتها على كلمات ووصفت بالاختراع فقيل عنها أنها مصنوعة . وقد أورد السيوطي في المزهرة عددا من تلك الكلمات غير منسوبة ووصفها بالاختراع والصنعة ، وقد روي في بعض مراجع اللغة والأدب ما يدل على أن أحد الشعراء أو الكتاب قد يرتجل كلمة أو كلمتين تفكها وتظرفا .

وفي كتب النحاة ما يرشدنا إلى اعترافهم بالارتجال في أثناء حديثهم عن العلم وتقسيمه إلى منقول ومرتل .

وفي العامية كثير من الألفاظ التي لا أصل لها في اللغة الفصحى أو اللغات الأجنبية وهي ترجع إلى اختراع الأفراد والجماعات ، وذكر الدكتور ابراهيم أنيس أنهم كانوا يقولون - على سبيل الاختراع - وهم طلبة مثل :

وتجربة ، فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه ، كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسمع من أولاد نظراء أهله - ولو كانوا مثله سنا كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه وأمه أو اخوته ، وسائر من اتصل بهم من قبل (38) .

ومن الممكن أن يتكرر الفرد لفظا من الألفاظ - كما يحدث في الجامع اللغوية - أو أن يرتكب خطأ في نطق كلمة أو تركيب جملة ثم يؤخذ عنه ويشيع ، وليس اشتراط شيوع الابتكار الفردي في اللغة مغيرا للأمر الواقع الذي هو أن الفرد وليست الجماعة هو السبب في التغيير اللغوي (39) .

وهناك ألفاظ لا تكون معروفة إلا في محيط الأسرة .

ومما يبتكره الفرد في مجال اللغة ، نقل الألفاظ إلى معان جديدة ، ويشترط علماء اللغة وجود العلاقة المسوغة لهذا الانتقال على ما هو معروف في أسلوب المجاز .

وقد ينقل الفرد أو الأسرة بعض الألفاظ إلى معان خاصة ، لا توجد عند غيرهم كاستعمال (فرعون) أو الطاغوت اسما لوالد مستبد ، والقط) لطفل مدلل في

أحمد على معاه) بدل (عال معاه قلم أحمد) لثار شعور
السامعين لمخالفة العرف اللغوي .

ولذا يشترط في ابتكار الفرد عنصر الأفهام لدى
الجماعة اللغوية . اللهم إلا في لغة الطفل أو (رغائمه) فإنها
تفقد هذا العنصر . وكذلك محاولة ارسال بعض
الأصوات لمجرد اللهو والهوى ، وفيما عدا ذلك يجب أن
يتبع الفرد في كلامه الاصطلاحات اللغوية العامة⁽⁴⁰⁾ .

الأسرة و(شعبه) لطفل بغية أن يعيش ، وغير ذلك مما
يستعمل في نطاق محدود . وهو نوع من ابتكار المعاني
ونقل استعمالات الألفاظ .

والفرد — حال ابتكاره للمفردات أو الأساليب —
مقيد بالعرف اللغوي المتعلق بالدلالة ، وقد أشرنا في
حديثنا عن الدلالة إلى أن مخالفة الأساليب العربية يزيد
من صعوبة المعنى⁽⁴⁰⁾ ولو نطقنا — في العامية — (قلم

وهم عشر العقلمين . تفتنطحت سلفا قناه كبر . فرع القنظل
انظر : ابن جني : الخصائص 2 / 21 -- 28 ومواضع أخرى منها 3 / 298 . والسيوطي : المزهري 1 / 52 - 56 ، 63 - 67 ،
90 وغيرها . والأصفهاني : الأغاني 3 / 62 والمسعودي : وروج الذهب 4 / 43 والاشموني 1 / 131 ، د . أنيس : من أسرار
اللغة ط 3 ص 90 - 92 .
(40) جيسرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 23 ، 43 .

آثار المجتمع في اللغة

1 - اللغة والجنس :

بأن اللغات ترتبط بعقلية أصحابها ، فاللغات الراقية ترتبط بعقليات الأمم الراقية ، والعكس صحيح .

كتبت بعض البحوث في (علم اللغة العام) عن العلاقة بين اللغة والجنس ، فرأى بعض الباحثين أن اللغة تختلف من حيث بنيتها ونظمها ، ومجاراتها للحياة والأحداث ، باختلاف المتكلمين بها ، من الشعوب ، حسب طبيعتهم الجسمية ، فلغات مجعدي الشعر تختلف عن لغات ملس الشعر⁽¹⁾ ولغات مستطيلي الرؤوس غير لغات مستديري الرؤوس⁽²⁾ .

فيرى العالم اللغوي الألماني ف . ن فنك F.N. Finck انه لا يجب علينا أن ننظر إلى اللغات الأ بوصفها آثارا معبرة عن عقل الشعوب ، وأن اللغات ليست إلا تصورات لا تقدم أمام عين العالم السيكولوجي أية حقيقة واقعية ملموسة ، وأن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة ، فيجب أن نطبق عليها طريقة ذاتية محضة ، بالأ نبدأ من اللغة التي ليست إلا نتيجة ، بل من العقل الذي يخلق اللغة⁽³⁾ .

وقالوا : ان وجود الأقسام الاسمية تشير إلى عقلية (بدائية) كما في لغات البانتو⁽⁴⁾ .

والحقيقة أن ربط اللغة بالجنس ، وبالعقلية ، تخم لا مسوغ له ، فليس في لون العينين ، أو البشرة ، أو شكل الجمجمة أي دليل على شكل أو طبيعة اللغة ، وحتى في حال المقارنة بين الزنجي والأبيض لا نجد أي دليل على أن لون البشرة أو شكل الشفتين يقابله دماغ خاص ينتج تفكيراً مختلفاً عن تفكيرنا⁽⁵⁾ .

وعلماء الانثروبولوجيا يمكنهم عند العثور على جماجم آدمية أن يحددوا أنواعها ، المستطيل منها والمستدير ، ولكن لا يمكنهم معرفة لغات أصحابها⁽⁶⁾ . لأن وجود الجمجمة بين أيدينا لا يستطيع بحال أن يعرفنا شيئاً عن

وقد استغل هذه النظرية أصحاب المذاهب السياسية ، ودعاة الاستعمار والغزو فتحذثوا عن طبيعة اللغات ، وفرقوا بين اللغات الهندية الأوربية واللغات السامية والحامية ، وادعى الغزاة - وهم من أرباب اللغات الأولى كالألمان ، والطلبان - أنهم شعوب راقية ، وأن متحدتي اللغات الأخرى شعوب متخلفة ، ينبغي أن يخضعوا لسيطرة الأرقى .

وارتبط بذلك الحديث عن طبيعة اللغات المتخلفة ، فهي تعجز عن التعبير عن المعاني الكلية ، وينعقد فيها النظم ، وتفتقد منها الحيوية ، وهي لغات قاصرة عن التعبير عن متطلبات الحياة الراقية ، والأحداث العصرية ، ولا يمكن لها في أي وقت أن تتطور إلى الحد الذي وصلت إليه اللغات الأوربية الراقية .

وقد سرى الاعتقاد - كذلك - بين بعض الباحثين

- (1) فندريس : اللغة ص 297 .
- (2) د. السران : اللغة والمجتمع ص 65 .
- (3) فندريس : اللغة ص 299 .
- (4) د. السران : اللغة والمجتمع ص 14 .
- (5) فندريس : اللغة ص 298 .
- (6) د. السران : اللغة والمجتمع ص 68 .

أنواع الترابط بين الكلمات والأفكار، التي كانت تتكون فيها، ولا عن الصور الكلامية التي كانت تنشأ في مراكزها المخية⁽⁷⁾.

ولا نستطيع أن نقول بوجود روابط ضرورية بين هاتين الفكرتين إذ لا ينبغي الخلط بين المميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تعد أعيانا قابلة للنقل، تعار وتبادل⁽⁸⁾.

ومن التحكم أن نعتبر اللغة وليدة العقلية، أو العقلية وليدة اللغة، لأن كليهما وليدة الظروف، ونتاج الثقافة والمدنية⁽⁹⁾.

ومن الصحيح أن نقول: ان اللغة صلة بالعقلية، إذ من الجائز أن تكون اللغة والعقلية نتاجا لأسباب واحدة، وأن تكون المميزات التي تميزها واحدة، دون أن يترتب على ذلك صدور احدهما عن الأخرى⁽¹⁰⁾.

واللغة — في بعض الأحيان — تستطيع أن تعدل من العقلية، وتنظمها فعادة وضع العقل في مكان بعينه دائما يمكن أن تؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال، والتفكير الفرنسي، أو الألماني، أو الإنجليزي خاضع للغة إلى حد ما، فإن اللغة إذا كان مرنة خفيفة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد النحوية سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام، وأتاحت لها حرية الحركة، وعلى العكس من ذلك تحتقن الفكرة من التضييق الذي يصيبها من لغة جامدة ثقيلة، ولكن عقلية المتكلمين تتصرف لتعتاد أي شكل من أشكال اللغة⁽¹¹⁾.

ومن الثابت أن بنية أية لغة من اللغات ذات علاقة

(7) فندريس: اللغة ص 376.

(8) فندريس: اللغة ص 298.

(9) فندريس: اللغة ص 298.

(9) نفس المرجع ص 299.

(10) نفسه ص 302.

(11) د. السمران: اللغة والمجتمع ص 65.

(12) فندريس: اللغة ص 300.

(13) انظر ص 8 وما أعلنا عليه من كلام فندريس في كتابه (اللغة).

بعقلية المتكلمين بها، وينظمهم، وبمحاضراتهم المادية⁽¹¹⁾.

ولكن ليس من المؤكد أن الأسباب التي تؤثر على اللغة تحدث في العقلية آثارا مماثلة⁽¹²⁾.

والواقع يناقض هذا الربط ويعارضه، فخريطة أوروبا اللغوية في العصر الحاضر تضم أخلاطا من الأجناس.

ومع هذا فإن فردا ينشأ لدى شعب غير شعبه يكتب لغته، وإذا أراد تعلم لغة شعبه الأصلي احتاج إلى مران طويل، وتدريب شاق شأنه في ذلك شأن أي أجنبي يريد تعلمها، فالزنجي أو الياباني الذي يربى في فرنسا في ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها، ولو أن طفلا فرنسيا تربى في بيئة الزنجي أو الياباني لتكلم لغة البيئة التي نشأ فيها⁽¹³⁾.

وان بعض اللغات التي كتب لها الذبوع والانتشار لتؤكد بطلان هذا الربط فالانجليزية قد انتشرت في مساحات واسعة من الأرض في قارات كثيرة أيام سيطرة الانجليزية على تلك الشعوب، واستعمروها فتكلم كثير منها اللغة الانجليزية وأجادوها، كأصحابها الأصليين، وكذلك العربية بعد الفتوحات الاسلامية الواسعة قد فرضت نفسها على شعوب كثيرة، وأجادوها كأهلها، دون اعتبار إلى الجنس أو اللون أو العقلية لدى هذه الشعوب المختلفة.

والحديث عن اللغات المتخلفة والراقية حديث غير موضوعي، فاللغات التي تتسم بسيمات (بدائية) يمكن أن تتحول إلى راقية لو انفسح أمامها المجال، وأتيحت لها ظروف التغير تبعا للتحويلات الاجتماعية التي تمر بها الشعوب المتكلمة بها.

وقد حكى بعض الباحثين ما حدث لبعض الطلبة الهنود الأمريكيين من امكان تعرفهم على المثل العليا الافلاطونية ، مع خلو لغاتهم من الأسماء العامة التي تستعمل دون (مغير)⁽¹⁴⁾ .

وفي امكان اللغات القاصرة ، أو غيرها ، معالجة كافة العلوم بشرط أن تزود بالمفاهيم والمصطلحات الجديدة .
لغات الشعوب البدائية تملك اصطلاحات ثقافية قليلة ولكنها لا تقل من حيث تكييف نفسها لكافة المجالات (الحياتية) عن لغاتنا المتحضرة .

فاللغة الأرائدية لا تملك مفاهيم مثل (الجبيل - التل - النهر) وعلى ذلك تكون لهجة تدريس الجغرافية أمرا صعبا جدا ، ولكن علينا ألا ننسى أن فيها أسماء لكل جبل ، وحتى لأصغر التلول .

ومن السخف التكلم عن اللغات (الأفضل) (والأسوأ) ، ان هذا شبيه بقولنا : أيها أفضل شجرة النخيل أم شجرة الصنوبر؟ افريقيا أم أوروبا؟ .

فالناس كلهم سواسية ، بغض النظر عن الجنس والثقافة ، والعرق وبنفس الطريقة تتساوى كافة لغات المعمورة في قيمتها وحقوقها⁽¹⁵⁾ .

2 - اللغة والمكان والزمان :

للمكان أثره في اللغة ، فقد لاحظ اللغويون أن لغة سكان الصحراء تختلف عن لغات سكان المناطق الأخرى من سهول ، وأراض زراعية ومدن صناعية .

فلغة الصحراويين خشنة الألفاظ ، غليظة الأصوات ، كما يتضح ذلك في لغة العرب الجاهليين ، فالعربي في الصحراء يجد أمامه الجو الهائل من الفراغ الطبيعي ، الذي يحتاج معه إلى قوة عضلية ، حتى يتضح صوته ، ويصل

(14) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 71 بتصرف .

(15) كندراتوف : أصوات وشارات ص 83 ، 84 .

(16) من سورة الحجرات الآية

(17) أبو عليج : أبو علي - العشيج : العشي .

(18) لبيش : لبيك .

إلى ما يريد من أماكن قد تكون بعيدة عنه .

والبيئة التي يعيش فيها ، تشكل جسمه ، وعضلات نطقه ، بطريقة تجعلها مستعدة لإخراج مثل تلك الأصوات ، على حين أن سكان المدن يميلون إلى رقة الألفاظ ، وانخفاض الأصوات ، ويتضح ذلك من تأذي النبي ﷺ من سماع أصوات الأعراب العالية حين قدموا عليه في المدينة ، فطالبهم القرآن الكريم بعدم رفع أصواتهم (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض)⁽¹⁶⁾ .

ويكفي أن نسمع - مثلا - كلمة (افرنقوا) - بمعنى تفرقوا - وقول بعض العرب :

خالي عويف وأبو عليج

المطعمان اللحم بالعشيج⁽¹⁷⁾

وقول بعضهم (لبيش اللهم لبيش)⁽¹⁸⁾ .

فهي تعبر عن صخب الأصوات البدوية ، وهكذا نجد اللهجات المتعددة ، وتنافر الأصوات إلى جانب ما في بعضها من ضعف القواعد النحوية والصرفية ، والاشتقاقية .

وخيال الصحراء محدود بتلك البيئة ، فالوسائل التي يلجأ إليها البدوي لجمال الأسلوب لن تخرج عن مجاله البيئي ، وما يوجد فيه من سماء ، وأرض ، ونبات ، وحيوان .

ويقول النابغة للنعمان بن المنذر :

فانك كالليل الذي هو مدركي
وان خلت أن المتأى عنك واسع

ويقول له كذلك :

كأنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ويصف امرؤ القيس فرسه فيقول:

مكر مفر مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويقول:

فعداى عداء بين ثور ونعجة

دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

ولكن بعد أن تحضر العرب ، وسكنوا المدن لاحظنا تغيراً في طرق التعبير ، وحسن الأصوات ، ونظام القواعد ، فقلت اللهجات ، وبرزت القرشية كلغة عامة بين العرب ، انطمس معها معظم تلك اللهجات ، وبما الخيال العربي ، وانطلق مع تقدم الأمة العربية ، على نحو يمكن معرفته ، من ملاحظة سير اللغة ، وآدابها ، في العصر الاسلامي وما تلاه ، وبخاصة في العصر العباسي ، الذي زاد فيه اتصال العرب بأهم ذوات حضارة ، واكتساب الأدباء والشعراء لكثير من ثقافات تلك الشعوب .

ومع ذلك تظهر ملامح البيئة فيها .

فابن الرومي الذي يعيش في الأحياء الشعبية التي يشاهد فيها صانع الرقاق يجعل ذلك مادة شعره في أبيات هي :

ان أنس لا أنس خبازا مرتت به

يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة

وبين رؤيتها قوراء كسالقمر

الا بمقدار ما تنداح دائرة

في الماء يلقى فيه بالحجر

وحينما يسأل : هل يستطيع أن يأتي بمثل ما أتى به

ابن المعتز في وصف القمر من قوله :

انظر إليه كزورق من فضة

قد اثقلته حمولة من عنبر

فيقول : وبحكم ، انما يصف ماعون بيته...!!

وقد تميزت العربية من أخواتها الساميات - كالأرامية ، والعبرية - بانتظام القواعد وعدوبة الألفاظ ، وسهولة التراكيب ، لأنها عاشت في بيئة أكثر مدنية من أخواتها⁽¹⁹⁾ .

وللزمان تأثيره في اللغة كذلك ، فالفرد يتأثر نطقه حسب مراحل سنه المختلفة كما ذكرنا⁽²⁰⁾ .

وانتقال اللغة من جيل يترك أثره في أصوات اللغة ، ومفرداتها ، ونظمها وتراكيبها .

فقد لاحظ جماعة من اللغويين أن أعضاء النطق تختلف من جيل إلى آخر ، فهي عند الأبناء ، تختلف عنها عند الآباء ، وعند الآباء تختلف عن حالها عند الأجداد وهكذا تتطور أعضاء النطق عند الجماعة الواحدة ، من عصر إلى عصر ، وان كان هذا التطور يسير ببطء لكنه يؤثر في ألفاظ اللغة ، وبخاصة في أصواتها .

ونحن نلاحظ أن بعض أصوات اللغة العربية قد تغير على لسان العرب المعاصرين سواء في ذلك لسان المثقفين بالعربية أو على المستوى الشعبي ، فالجيم العربية تنطق على لسان بعض المذيعين خالية من التعطيش أو بتعطيش قليل في مصر ، وأما على المستوى الشعبي فقد خلت نهائياً من التعطيش ، على حين أن السوريين يبالغون في تعطيشها ، وقد غدت الثاء قريبة من السين ، والذال قريبة من الزاي على لسان بعض المذيعين وغيرهم من المتحدثين بالفصحى ، على حين انقلبت إليها على لسان العوام ، والصاد والسين والزاي قد اختلف نطقها في الحديث عنه في القديم ، وناهيك بالانحراف الذي يسري على السنة

(19) انظر: د. وافي: علم اللغة ط 4 ص 233 - 236

(20) انظر ص 13 من هذا البحث .

العوام لأصوات القاف والطاء ، والظاء والضاد وغيرها مما حدث فيه خلط أو تريق .

وماذا نقول عن فقدان الاعراب في العاميات ، وعن تقصير الحركات الطويلة أو حذفها ، وإطالة الحركات القصيرة ، أو خلق حركات ما أنزل الله بها من سلطان . وانظر مثلا إلى قول المصريين العوام : جم - جه - بكام ؟ معاك ؟

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما يدخله الأدباء والعلماء من ألفاظ وتراكيب كانت قديمة فيحيونها ، أو مستحدثة يتكرونها ، أو منقولة من اللغات الأخرى للحاجة إليها في إبراز المعنى ، أو في تسمية المستحدثات الصناعية ، أو غير ذلك من الأغراض .

3 - اللغة والنظم الاجتماعية :

تتأثر اللغة بالأنظمة الاجتماعية التي تكون عليها الأمة ، فتحمل سمات المجتمع في النواحي السياسية ، والاقتصادية ، والدين : فالمجتمع يطبع خواصه في هذه النواحي على لغته ، فالكلمات ، والتعبيرات تمشي مع شكل النظام السياسي ، والاقتصادي والديني وغيرها من النظم الاجتماعية .

ففي مجال السياسة نلاحظ اختلاف نظم الأمم ، فهناك النظام الديمقراطي أو النظام الاقطاعي ، أو النظام الشيوعي ، ولكل طريقته التي تظهر في أساليب لغته ، ف لغة الانتخاب ، والمراسيم الحكومية ، والمجالس النيابية تتجلى فيها طريقة النظام الذي تسير عليه الدولة .

وعندما يتغير الشكل السياسي تتأثر اللغة به ، فلو درسنا الألفاظ المستعملة في مجال السياسة التطبيقية قبل الثورة ، وما استعمل بعد الثورة لوجدنا اختلافا واضحا ، في كل من الفترتين ، فالنظرة إلى الفرد قد اختلفت وأخذ لفظ (السيد) مفهوما جديدا في الاستعمال .

ونلاحظ في أسلوب المعاهدات والمعاملات بين الدول طابع الصورة التي تكون عليها تلك الشعوب ، من

النواحي السياسية ، فتزد عبارات : (العالم الحر) - (عدم الانحياز) - (التحالف) - (الصدقة) - (المودة) وتفسر في ظل المفاهيم السياسية التي تراها الدول التي يجري بينها التعامل .

وقد نشأ عن هذا تغيير مدلولات كثير من الألفاظ والتراكيب ولو درست معانيها في القديم والحديث - لاكتشفت فروق هائلة بين المراد قديما ، وحديثا حسب مصطلحات العصر ، وربما أتاح هذا مادة خصبة لمعجمات تضم معاني جديدة لم تعرفها العربية من قبل .

ولنراجع معاهدة العبارات : (الظلم الاجتماعي) - (سيطرة الاقطاع) - (الخلية الثورية) - (الدفع الثوري) - (الحوافز الثورية للجاهير) - (الدكتاتورية التطبيقية) - (دموية الصراع الطبقي) - (نضال الشعب) الخ .

وللحياة الاقتصادية طرائقها ، ونظمها التي تتخذ من اللغة أداة فعالة لها ، توجهها كما تشاء في الأصوات والمفردات .

فالنواحي الاقتصادية كثيرة ، ومتشعبة ، والتعامل بين الأمم له وسائله ، ودعاياته والتعامل بين أفراد الأمة ، وجماعاتها له وسائله ودعاياته أيضا .

فأسلوب البيع والشراء له مسالكه التي يلجأ إليها كل من البائع والمشتري وطرق عرض السلع ، والاعلان عنها يأخذ أساليب شتى ، وأسواق البيع والشراء تحوي دهاء البائع والمشتري ، ولذا تبدو في المجال اللغوي للبيع والشراء اصطلاحات ، وألفاظ وطرائق لغوية تتميز بها جماعات التجار على تعدد أنواعهم وسلعهم .

ونشاط أصحاب الحرف زراعية وصناعية وتجارية يرتبط بالمفاهيم اللغوية الجديدة التي تمشي مع وصفهم في المجتمع ، فأساليب الزراعة ، والصناع ، والتجار تجري حسب ميولهم ، وأهوائهم ، ومصالحهم ، وترتبط بالأوضاع الجديدة التي تعرض لهم .

ويكفي أن نعرف أن العمل ، والعمال زراعيين وصناعيين أصبح لهم بعد الثورة شرف الانتساب إلى

أعمالهم ، وتحولت معاني الكلمات (العمل - العامل - الفلاح) من الصفة التي كانت تلاحقها في الماضي بسخرية واستهزاء إلى شرف المعنى واحترامه (21) .

وللدين كذلك أثره الفعال في اللغة ، فالمجتمع في طقوسه الدينية ، ومشاعره يسلك مسلكا لغويا ذا طابع خاص ، ولغة الدين لها ألفاظها ، وتراكيبها ، وطرائقها التعبيرية ، ولننظر إلى ألفاظ الأذان ، والصلاة ، والخطب الدينية ، وطرائق المدايح النبوية ، وأساليب القرآن الكريم الذي يلجأ إلى طرق خاصة في الاقتناع والتوجيه ، ولا ريب أن أداء هذه المراسم الدينية ، وقراءة النصوص ، والأدعية المأثورة لها نظمها الصوتية ، التي تحرك المشاعر ، والوجدان .

وهناك تعبيرات شائعة لدى الناس يستمدونها من إيمانهم بخالقهم ، ويحيطونها بهالات الإكبار الذي ينبعث من الاحساس الديني كأساليب القسم وتعويد الأطفال بآيات الكتاب الكريم ، والأساليب الشعبية المستمدة من الدين مثل (اسم الله عليك - باسم النبي حرسك) .

ولو تتبع الباحث اللغوي تاريخ الألفاظ ، والتعبيرات الدينية المأثورة قديما حتى العصر الحديث ، لأمكنه أن يقف على تاريخ التطور اللغوي الذي ينبعث من مشاعر دينية ، لاسيا ونحن نعلم أثر الدين في النفوس .

ولو درس الأسلوب القرآني دراسة فاحصة ، لأمكن ادراك كثير من الانجاهات ، والمسالك اللغوية التي يتحياها .

ونلمس في لغة الأساليب الدينية ، ميلا إلى الإيقاعات الصوتية كالسجع ، والفواصل وتتابع الأصوات ، وتنغيم الكلام .

ولو تركنا الدين الإسلامي إلى غيره من الأديان

الأخرى لوجدنا الطقوس الدينية التي تسلك مسالكها ، فلا تزال الكنيسة تستخدم التعابير القبطية التي يرددها بعضهم دون فهم (22) .

ولاشك أن كتابات المسيحيين باللغة العربية تحولت إلى أساليب ، ومفهوم الألفاظ العربية ، حسب الانجاهات التي يلجأون إليها ، فلهم عرفهم في الاستعمالات اللغوية ويمكن ملاحظة ذلك من أساليب كتاباتهم الدينية ، وذلك أيضا بغير من ألفاظ اللغة ، وتراكيبها ومفاهيمها فيخضعها لما يريدون .

4 - اللغة والطبقات الاجتماعية :

يضم كل مجتمع عناصر بشرية مختلفة ، تعيش في المدن ، والقرى ، وفيها الزراعة والصناع والارستقراطيون ، والفقرء ومتوسطو الحال وفيها الآمرون والعلماء والمثقفون ، كالطبيب والمهندس والمدرس ، وعالم الدين ، ورجل القانون ، والأديب وغيرهم .

ولكل من هذه الطوائف خصائصها ، في نشأتها ، وطريقة حياتها ، وعاداتها وتقاليدها ، ومستواها الاجتماعي ، ولذا تستخدم اللغة استخداما مستمدا من البيئة والأعمال التي تراوها .

وتعرف هذه اللهجات ذوات الطوايع المتميزة باللهجات الطائفية) أو (الطبقية) أو (الاجتماعية) ، كما يسميها علماء اللغة (23) .

فالشتغلون بالزراعة لهم لهجتهم الخاصة ، المستمدة من بيئتهم وعملهم ، وما يتصل به من آلات ، وأدوات .

ففي (التوائية) - وهي لغة شعب زراعي - خمس كلمات للدلالة على اللون الأشهب ، ولكن هذه الكلمات ليست من المترادفات لأن كلا منها تقال عن شيء خاص . بالأوز والخيل والبقر والحيوان الداجن مما عدا ما سبق

(21) د. السمران : اللغة والمجتمع ص 74 - 94 بتفصيل أكثر .

(22) فندريس : اللغة 314 ، 315 .

(23) د. السمران : اللغة والمجتمع ص 60 ، د. وافي : اللغة والمجتمع ص 148 .

وشعر الانسان - وفيها دلالة على (المبقع) أو (الأبلق) عدد من الكلمات بقدر ما يوجد فيها من الفصائل الحيوانية ، وهذا يستلزم قوما اخصائيين في تربية الحيوان⁽²⁴⁾ .

وللزراع - في مصر - لهجاتهم الخاصة التي تختلف باختلاف المناطق التي يعيشون فيها .

ويبدو ذلك في مظاهر حياتهم ، وسلوكهم اللغوي ، ولعل في هذا المثل المستمد من بيئتهم ما يؤكد هذه الحقيقة ، ففي بعض المناطق يقولون : (أردب ما هو لك ما نحضر كيله تتعفر دقنك ويلزمك شيله) .

ولكل حرف أو صناعة ألفاظها الخاصة ، فلحدادين ، والنجارين ، والبحارة وغيرهم من الصانع وذوي الحرف لهجات متنوعة في كلماتها ، وعباراتها .

وتشتمل لهجات هؤلاء وأولئك على ألفاظ من اللغة العامة ، أو من لغات قديمة أو أجنبية .

ففي مجال الزراعة تحتفظ العامية المصرية - من اللغة القبطية - بأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية ، وفي العامية العراقية كثير من الكلمات البابلية ، والآشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

وفي مجال الصناعة كلمات متوارثة ، أو منقولة من لغات أجنبية وبخاصة - بعد التطور الصناعي العالمي ، وقد دخل اللغة العربية كثير من الألفاظ الإنجليزية ، والإيطالية والألمانية ، واليونانية ، مما يتصل بالهندسة والميكانيكا والآلات الصناعية⁽²⁵⁾ .

وللطبقات الارستقراطية ، والفقيرة ، والوسطى ، لهجاتها التي تنبئ عن مكانتها الاجتماعية ، وأوضاعها

الاقتصادية ، وطرق معيشتها ونظامها الاجتماعي .

يقول فندريس - عن اللهجات الارستقراطية الفرنسية - (في كل العهود التي كونت فيها الارستقراطية طبقة مغلقة ، تحيا حياة الصالونات وتعتز بجمال اللغة أدت هذه الحال إلى نشوء مفردات نبيلة أبعدت منها كل كلمة سوقية ، وهم وان استوا في العقل مع غيرهم ظلت لهم على غيرهم من سواد الناس ميزة التعبير بعبارات خير من عباراتهم ، وجعل أشهى إلى النفس)⁽²⁶⁾ .

وللطبقات الارستقراطية في مصر لهجاتها الخاصة ، ولكنها تقوم - أحيانا - على تشويه بعض أصوات اللغة العامة ، واستعمال كلمات وتراكيب أجنبية لا اعتقادها أن ذلك علامة الرقي ، والتقدم⁽²⁷⁾ .

والطبقات الفقيرة والوسطى أكثر استقرارا أو اعتدالا في استعمال اللغة .

وقد يعرض لفرد أو أكثر من الطبقات الدنيا ثراء فجائي ينقلهم إلى مستوى مادي أعلى ، فيحاولون مجارة الطبقة الراقية ، وإذا كانوا يستطيعون ذلك في المسكن والملبس ، وغيرهما من مظاهر الحياة المادية ، فن العسير عليهم مجارة تلك الطبقة في لهجتها ، فإن صعوبة التقليد الكامل تجعلهم عرضة للخطأ ، وتعود بهم إلى طبقتهم الأولى⁽²⁸⁾ .

وللطبقات الخارجة على نظام المجتمع - كاللصوص ، والمجرمين ، والأشقياء - لهجات تستخدم طرائق معينة في استعمال كلمات اللغة العامة ، بنقلها إلى معان مجازية أو استعارتها لدلالات بعيدة عن مفهومها الأصلي ، أو خلق وانتكار مفردات وعبارات جديدة ، لمفاهيم يصطلحون عليها ، وربما لجأوا إليها لاختفاء جرائمهم ، وأوضاعهم الشاذة ، «ففي أمريكا - مثلا - يسمي اللصوص

(24) فندريس : اللغة ص 286 .

(25) د. السمران : اللغة والمجتمع ص 105 - 108 بتصرف . وانظر : اللغة ص 283 وما بعدها .

(26) فندريس : اللغة ص 287 .

(27) انظر إلى استعمالهم : انارب مكان أرناب - زالم مكان حالم - السير مكان الصير - مرسيه مكان شكرا ونحو ذلك .

(28) د. السمران : اللغة والمجتمع ص 50 .

(الجواهر) باسم (الجليد) والجواهر المسروقة (الجليد الساخن)» (29)

ولذا تسمى لهجتهم بـ(اللهجة السرية) أو (الكلام السري) (30)

وقد فطن الجاحظ إلى لهجات الطبقات الدنيا في أيامه فهو يعرض للهجة المتسولين، والمحتالين، ولاسيما ما جاء في كتاب البخلاء من هذا الباب كما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التي ارتضت لنفسها أن تحيا حياة خاصة، وهم اللصوص، وقد كتب في الموضوع رسالة أسماها كتاب اللصوص، وجاء ذكر الكتاب في مظان عدة (31)

ومن أمثلة تلك اللهجات الخاصة القصيدة الطويلة التي كتبها في القرن الرابع الهجري الشاعر الماجن المتسول أبو دلف الخزرجي النيبوعي مسعر بن مهلهل، واشتهرت باسم القصيدة الساسانية، واختار منها أبو منصور الثعالبي قدرا لابأس به وشرح المصطلحات الخاصة بالمتسولين (32)

وللعلماء والمتقنين - على اختلاف طبقاتهم ومناحي تعليمهم - من أطباء ومهندسين ومدرسين وعلماء وكتاب، أنواع من اللهجات تتفق مع مستواهم الثقافي والعلمي.

وتبين لهجة التكلم نوع تعليمه، ووسطه الثقافي، فالقانونيون لهم لهجتهم الخاصة، وحيثياتهم التي يبنون عليها كتاباتهم وأحكامهم (33) ومثال ذلك حالة (المحضر)

(29) نفسه ص 61 .

(30) فندريس: اللغة ص 314 ، 316 ، 320 .

(31) د. حسن ظاظا: اللسان والانسان ص 112 .

(32) الثعالبي يتيمة الدهر ط 1353 هـ - 1934 م، ج 3، ص 332 ، 333 .

ود. حسن ظاظا: اللسان والانسان ص 112 - 114 .

(33) فندريس: اللغة ص 314 .

(34) نفسه ص 315 .

(35) نفسه ص 315 .

(36) نفسه ص 340 .

وحالة (القاضي) فهذان يستعملان في تسبب حيثياتهما أو في تحريرها لغة بعيدة جدا عن اللغة الجارية (33) . ولغة المحاكم - بعامه - من هذا القبيل فكل مصطلح فيها اتخذ له دلالة نهائية على رجال المحاكم أن يحفظوها وأن يتبعوها دون أن يغيروا شيئا منها (34) .

وللأطباء لهجة يستعملونها عندما يحرون نشرة طبية، وللعلماء لهجة عندما يعالجون مادة علمهم .

ويسمي علماء اللغة هذه اللهجات باسم اللهجات الفنية، ففي كل فن علمي تستخدم كلمات اللغة العادية في معنى خاص، كما يفعل علماء الطبيعة، حين يتكلمون عن الكتلة أو (السرعة) أو (القوة) وأحيانا تختزع كلمات خاصة .

«واللغات الفنية تدين بوجودها إلى الحاجة للدلالة على أشياء أو أفكار لا أسماء لها، في الاستعمال الجاري، ولكنها أيضا ترجع إلى الحاجة للدلالة (بصورة علمية) أي بمصطلح دقيق يرفع كل لبس على أشياء مما تعبر عنه اللغة العادية تعبيرا جيدا» (35) .

ولرجال الأدب من شعراء، وقصاص لهجة ذات خصائص، والأديب في حاجة إلى أداة شخصية يعبر بها عما يوجد في ذكائه، وحساسيته من عناصر خاصة، ومن أمثلة اللهجات الأدبية لغة الملحمة اليونانية وفي الهند لغات أدبية على أساس ما من اللهجات (36) .

وللصحافة لهجتها الخاصة، فالصحف الشعبية في فرنسا (لا تكاد تكتب غير اللغة المتكلمة مصبوغة بالصيغة

الأدبية ان قليلا وان كثيرا) على حين أن الصحف الكبرى تستخدم اللغة التي يستعملها خير كتابنا⁽³⁷⁾.

ومعظم الصحف والمجلات المصرية - الآن - وان اصطنعت العربية الفصحى صورة فانها تخالفها مضمونا بادخالها كثيرا من الألفاظ والتراكيب الغريبة عليها وهي - بذلك - لها لهجتها الخاصة التي تخاطب الجماهير الشعبية .

ولكل من الرجال والنساء لهجة خاصة ، في المجتمعات التي تفرق بين الجنسين ، وتعزل أحدهما عن الآخر . وكلما ازداد البعد ، والاتصال بين الجنسين أدى ذلك إلى وضوح الفروق بين لهجة كل منهما .

أما في المجتمعات التي تخف فيها قيود الانفصال بين الرجل والمرأة فإن اللهجة تتقارب بينهما ، ولا يكون لها مظاهر إلا في اختلاف يسير في بعض الأصوات والمفردات والتراكيب كما يشاهد في معظم مناطق مصر الحديثة .

ولهذه اللهجات الطبقة خصائص عامة ، تشترك فيها جميعا ، فهي :

(1) تشوه أصوات بعض الكلمات ، وقوانينها الصرفية ، فلكل منها اتجاه صوتي في نطق الكلمات .

فقد يقع للعامة الخاصة أن تتبع بعض عادات في النطق تساعد على تمييزها .

ومن أمثلة ذلك نطق الطبقات الريفية ، والمدنية للأفعال (قال - جاء - يقدر) فينطقها بعض الريفيين (جال - ايجه - يقدر) وفي المدن والقرى المتأثرة بها (آل - جه - بأدر) .

وهذا في الحالتين تشويه لأصوات ، وبنية بعض الكلمات .

كما أن طريقة الأداء الصوتي مختلفة بين الريف والحضر ، بثنى الطبقات ، - ويمكن - من خلال الاتجاه الصوتي التعرف على طبقة المتكلم الاجتماعية .

«والعامة الخاصة المستعملة في الأطراف الباريسية تحتوي على بعض الخصائص الصوتية التي تكفي للتعريف بطبقة المتكلم الاجتماعية»⁽³⁸⁾ .

وفي العامة الخاصة يستطيع المتكلم بوجه خاص أن يسمح لنفسه بنطق الكلمات في صورة مختزلة ، لأنه يخاطب عددا محصورا من المتكلمين كلهم ممدد الذهن لفهمه ، وكلهم تفاهم معه ، مقدما ، ومن ثم يجيء هذا العدد الضخم من حالات الحذف ، والاسقاط ، والتبسيط ، وحذف النهايات ، هذه العوارض الصوتية التي تجعل العامة الخاصة لا يفهمها إلا العارفون⁽³⁹⁾ .

ولذلك أمثلة كثيرة فكلمة (ولد) ينطقها بعض المصريين كاملة الأصوات ، هكذا ، وبعضهم (ول) وبعضهم (واد) وعلى هذا يختلفون في ندائه (ياولد - ياول - يواد) .

وغني عن البيان أن الاختصار في استعمال أصوات الكلمات يتم اعتماده على فهم أرباب الطبقة التي منها المتكلم .

(2) تستعير كلمات من اللغة العامة ، وتستعملها استعمالا مجازيا .

فالكلمات العامة (مشغل - عمل - صنعة - تصنيف - عملية) تتخذ بالضرورة معنى خاصا في أفواه الذين يستعملونها وفقا لنوع المهنة التي تستخدم فيها هذه الألفاظ ، فظاهرة التخصص المعنوي تلك هي أساس العامة الخاصة⁽⁴⁰⁾ .

(37) نفسه ص 345 ، 346 .

(38) نفسه ص 317 .

(39) نفسه ص 319 ، 320 .

(40) نفسه ص 317 ، 318 .

واللهجات الخاصة لا يفصل بعضها عن بعض ، انفصالا تاما فللطوائف الاجتماعية صلات تقتضيها المصالح التي تجمعهم فـ«تنوع اللغات (اللهجات) يرجع إلى تعقد الروابط الاجتماعية ، ولما كان من النادر أن يعيش فرد محصورا في مجموعة اجتماعية واحدة ، كان من النادر أيضا أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفذ إلى مجموعات مختلفة ، إذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ، ويؤثر بلغته على لغة المجموعة المجاورة التي يدخل فيها»⁽⁴¹⁾ .

ولا تتكلم أسرتان متجاورتان لغة واحدة اطلاقا ، ومع هذا فإن لقاء الأسر المشترك يؤدي إلى الوحدة اللغوية بينهما ، وقد يعيش أخوان معا ، ولأحدهما مهنة تختلف عن مهنة الآخر ، فتصير لهجة كل منهما إلى طائفته التي ينتمي إليها ، وتدب عوامل الفرقة بين لسانيهما إلا أنها يتغلبان عليها ، بلقائهما اليومي ، ولو أن أحدهما انفصل عن الآخر في حياته ، أو أدى حدث ما إلى التفريق بينهما فقد يصبح لكل منهما لهجة تختلف تمام الاختلاف عن الأخرى⁽⁴²⁾ .

فاللهجات الطائفية تتداخل فيما بينها لعوامل الاتصال القائمة بين أصحابها فإذا قدر لاحدى اللهجات أن تنفصل عن الأخرى - لعوامل تدعو إلى ذلك فإن هذه اللهجة تصبح بعيدة عن أخواتها (ولذلك كانت في فرنسا لهجة الطبقات الدنيا من العمال واللهجات السرية للجاعات المتصوفين ، والرهبان ، ولهجات المجرمين ، واللصوص ، ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذي انشعبت عنه ، وبعدا عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية ، وكذلك الشأن في إنجلترا ، فلهجات اللصوص ، وقطاع الطرق ، والمجرمين الانجليز من أشد اللهجات بعدا عن اللغة الأصلية ، وعن المستوى العام للهجات الاجتماعية)⁽⁴³⁾ .

والاستعارات ، والنقل في العامية الخاصة تبلى بسرعة ، وتحتاج إلى كثرة التجديد ، لأن الغرض من استعمالها هو توسيع شقة الخلاف التي تفصل بين العامية الخاصة ، واللغة المشتركة ، والمحافظة على بقاء هذا الخلاف ، فلا يدهشنا إذا أن تستهلك العامية الخاصة من الاستعارات أكثر مما تستهلك أية لغة أخرى⁽⁴⁴⁾ .

3) تستمد كلمات من لغات أجنبية ، والمراد بالأجنبية كل ما ليس من اللغة المشتركة فيدخل في ذلك ما تنقله من اللهجات الخاصة الأخرى ، ومن كل اللهجات المتفرعة من اللغة المشتركة ، فضلا عن اللغات الأجنبية التي تتكلمها الأقطار المجاورة (فالعامية الخاصة الفرنسية على وجه العموم تحتوي على كلمات أجنبية قليلة العدد : عربية ، والمانية) وغيرها⁽⁴⁵⁾ .

وفي اللهجات الخاصة المصرية ألفاظ مستمدة من لغات أجنبية حسب الطبقة أو الحرفة التي تتطلبها .

4) قد تأخذ اللهجات الخاصة من الكتب وهو أمر فردي في غالب الأحيان ، وهو إحدى الوسائل الاصطناعية التي تدخل في تكوين العامية الخاصة ، ويذكرون أن فرجيليوس مارو النحوي الذي عاش - على ما يظهر - في القرن الخامس بعد الميلاد اخترع لغة خاصة ، ظلت شائعة الاستعمال زمنا طويلا بين تلامذة المدارس الأيرلندية ، وكانت تقوم هذه اللغة على تشويه الكلمات الجارية ، بأنواع من تضعيف المقاطع ، أو نبرها ، أو نقلها ، وبمضي الزمن تحورت ، وتمخضت عن لغة أخرى أمشاج سميت (لغة الشعراء) وهي عامية خاصة اختلطت فيها - على غير قاعدة - كلمات مستعارة . من اللاتينية ، والاعريقية ، والعبرية ، وكلمات أهلية ألهمها الاستعمال أو استمدت من النصوص العتيقة⁽⁴⁶⁾ .

(41) نفسه ص 317 ، 318 .

(42) نفسه ص 318 .

(43) نفسه ص 319 - 321 .

(44) نفسه ص 306 ، 307 .

(45) نفسه ص 307 .

(46) د. وافي : اللغة والمجتمع ص 148 .

منها ، كالموت ، والأمراض الخبيثة ، والجبن ،
والشياطين ، وجهة اليسار ، والشر ، فليجأ عند ذكرها إلى
التستر والغموض .

ويتحدث الناس في الأمور المتصلة بعالم الغيب
بعبارات خاصة جرت العادة باستعمالها .

ويلجأ المجتمع في التعبير عن الأمور المنوعة ، أو التي
تدعو إلى القلق إلى استعارة كلمات من الخارج ، أو إلى
المجاز ، أو استبدال كلمة مكان أخرى ، وتشويه بعض
الكلمات أحيانا ، وتعديل عناصرها صوتيا .

فكلمة *pissoir* (مكان البول) في الألمانية أقل
منها جرحا للآذان في الفرنسية ، لأن استعارة كلمة من
الخارج تخفف من افتضاح الشيء الذي يعبر بها عنه ،
فهي تلعب دور الكتابة⁽⁴⁷⁾ .

وكلمات (كيانية - تواليت - دورة المياه) - عندنا -
حلت محل كلمة (مرحاض) وكأن الاستعارة من اللغات
الأجنبية ، أو استبدال كلمة بأخرى تجعلها أكثر مراعاة
للباقة .

(وقد عدل الأطباء منذ حين عن استعمال كلمة
(عملية) *operation* التي صيرها الاستعمال قاسية مخوفة ،
لا يسمعه المريض حتى يتصور الآلات المرعبة والملابس
الملوثة بالدماء ، والجسم وقد طواه الألم طيا ، فكلمة
(عملية) ضحية الصور التي تثيرها لذلك يسود الميل إلى
الاستعاضة عنها بكلمة *intervention* (تدخل) لأنها
أنضر جدة منها ، وأكثر تحفظا وأشد غموضا ، أيضا ، لا
يبلغ لسامعها قلب المريض ، والكناية ليست إلا صورة
مهذبة متحضرة مما يسمى تحريم المفردات)⁽⁴⁸⁾ .

ولما كانت أسماء المثالب والعاهات معرضة للنهي
بشكل خاص ، فلا ينبغي أن نندش حين نرى الجرمانية

وهذه اللهجات الاجتماعية ، لا يتميز بعضها من
بعض إلا في المدن الكبرى حيث تعدد الوظائف ، ويكثر
الناس ، وتتنازع الطبقات ، كنيويورك ولندن ، وبغداد -
في عصر العباسيين ، والقاهرة - في العصر الحديث .
(ويوجد داخل باريس عدد من اللغات (اللهجات)
المختلفة ، تسير كلها جنبا إلى جنب ، فلغة الصالونات مثلا
ليست لغة الثكنات ، ولغة الأعيان ليست لغة العمال ،
وهناك رطانة المحاكم ، والعامية الخاصة التي تتكلم في
حواشي المدينة ، وهذه اللغات يختلف بعضها عن بعض
إلى حد أنه قد يعرف الانسان احداها دون أن يفهم
الأخرى⁽⁴⁷⁾ .

واللهجات الخاصة تنشأ من الانفصال الاجتماعي ،
ولكنها تقوم دائما على مادة لغة مشتركة ، وتظل عادة
تستمد منها غذاءها⁽⁴⁸⁾ .

5 - العرف واللباقة اللغوية :

في كل مجتمع أمور يعاب التصريح بها ، أو التحدث
عنها ، أحيانا بين الكبار ، وأخرى بين الصغار ، وما يباح
لبعض الكبار في موقف قد لا يباح لهم في موقف آخر .
ولكل من الصغير والكبير ، والرجل والمرأة ، وجماعة
الذكور وجماعة الاناث كلام لا يباح للآخر ، ولا يليق
به .

وبعض الكلام لا يليق التفوه به في العرف
الاجتماعي ، كالثائم وما يكون لدى بعض الناس من
عاهات ، وكل ما هو جارح للاحساس ، والآداب
العامية ، ويستعاض في اللغات عن الكلمات الجارحة
بأخرى تخفف من حدتها .

ويكره المجتمع التحدث عن بعض الأمور التي يتشاءم

(47) فدريس : اللغة ص 306 .

(48) نفسه ص 320 .

(49) نفسه ص 280 .

(50) نفسه ص 281 .

تشتق من أصل واحد ، يدل على عاهة جسمانية ثلاث كلمات مختلفة (تدل على الصمم ، والبكم ، والحماقة) وذلك بتعديل عناصره الصوتية⁽⁵¹⁾ .

(وترى الشتائم في كثير من اللغات ، تصاب بشيء من التشوه ، المقصود ، الذي يمكن من ادخالها في أرقى الأوساط)⁽⁵²⁾ .

ونحن نقول في عاميتنا : (يا نهار أحوس - يا خراشي - يخبشك) بدلا من (يا نهار أسود - يا خراي - يخبك) كل ذلك للتخفيف من حدتها .

أما موضوعات التشاؤم كالموت ، والخوف من الجن ، والأمراض الخبيثة فنلاحظ المجاز ، والكناية عنها ، واستعمال عبارات تشير إلى الخوف أو تقلب معناها إلى ما يتمنى من الخير .

فالموت - في أكثر اللغات - يكنى عنه بالذهاب ، وفي العربية تستعمل لفظة (الوفاة) وهي مشتقة من (الوفاء) أي رد ما يستحق الآخرون عند الانسان ويعبر عنه بعبارات كثيرة مثل : أفلت شمس ، صعد إلى بارئه⁽⁵³⁾ ، لبي داعي ربه .

ويكنى عن الحصبة في العامية المصرية بـ(المبروكة) . ويعرض الناس - عادة - عن ذكر الأمراض الخبيثة ، كالسل والسرطان ويدخلون في كلامهم عبارات لازالة مفهومها القاسي مثل : ربنا يكفيننا شره - والعياذ بالله - الخ ويستعيذون بالله من الأرواح الشريرة⁽⁵⁴⁾ .

وجهة اليسار جهة يتشاءم منها ، وكأنها جهة القوى الخفية ، التي لا يراد ابقاؤها (لذلك كثيرا ما قضي بالتحريم على اسم اليسار ، وكانت نتيجة هذا التحريم الاضطرار إلى استعمال العبارات الملقوفة ، والاستعارات للتعبير عن اليسار)⁽⁵⁵⁾ .

وهناك الأمور الغيبية ، والعالم غير المنظور الذي يقتضي عبارات خاصة (فالرقى السحرية التي نعرث عليها في قبور اليونان ، وإيطاليا ، وأفريقية مكتوبة على ألواح من الرصاص ، تطبق في غالب الأحيان ، هذه الخطط نفسها : استعمال الكلمات الأجنبية ، أو تشويه الكلمات الأهلية ، ولكن الباعث هنا يختلف ، إذ ييغون من وراء ذلك الاتصال بالعالم الآخر ، ومن ثم يدخلون في تحرير النص اعتبارات لا صلة لها باللغة⁽⁵⁶⁾ .

(51) نفسه ص 282 .

(52) نفسه

(53) جيسرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 184 ، 185 ، وانظر : فندريس : اللغة ص 28 ، ود. السعران : اللغة والمجتمع ص 130 .

(54) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 131 .

(55) فندريس : اللغة ص 281 .

(56) نفسه ص 321 ، وانظر أيضا ص 322 - 325 .

المنافسة بين اللهجات واللغات

1 - المنافسة بين اللهجات :

تفوق لهجة على أخرى ، وهي تعود - في بعضها - إلى الثقافة والحضارة ، والنفوذ والسلطان ، وعدد الناطقين ونحو ذلك .

فإذا انفردت احدهما بمزية ، بأن كانت أكثر ثقافة أو حضارة أو ذات نفوذ سياسي أو تجاري أو ديني واسع أو أكثر عدد الناطقين بها فإن ذلك يدعو إلى تغلبها على اختها أو أخواتها من اللهجات الأخرى .

وقد حدث هذا كثيرا في التاريخ اللغوي .

فاللاتينية التي صارت لغة إيطاليا المشتركة ، وأخيرا لغة العالم الغربي بأسره ، كانت لغة روما أولا وقبل كل شيء أي لغة المدينة في مقابلة لغة الريف المجاور ، واللهجات القاصية على السواء⁽¹⁾ .

واللهجة الباريسية ، أصبحت لغة فرنسا ، بتغلبها على اللهجات الأخرى (فالفرنسية إنما خرجت من العاصمة ، ومن طبقة اجتماعية بعينها من طبقات العاصمة ، وهي البرجوازية .. وقد استقرت في القرن التاسع عشر ، وسلم بها القصر ، ثم الأقاليم ، والكتاب الكبار باستعمالهم إياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائيا ، وعلى استمرارها لذلك لا تكاد تحس فيها أثرا للهجات)⁽²⁾ .

ولهجة فلورنسا كانت مزاياها الذاتية ترشحها أكثر من غيرها للقيام بدور اللغة المشتركة إذ كانت أقرب من غيرها إلى اللاتينية⁽³⁾ .

ولهجة فلورنسا (في إيطاليا) - لهجة المجتمع الراقي بهذه المدينة - هي التي صارت لغة إيطاليا⁽⁴⁾ .

يحتاج الناس إلى اتصال بعضهم ببعض ، أفرادا ، وجماعات ، وأما . ولهذا الاتصال آثاره اللغوية ، فلهجات ولغات تلك الجماعات والأمم تتلاقى ، ويستفيد بعضها من بعض .

والتأثر الذي يعتري لهجات اللغة الواحدة ، قد يبدو عاديا حين لا يكون الاختلاط بين الطبقات كبيرا ، كلهجات القرى والمدن ، في أية دولة ، فلكل منها سمات تمتاز بها عن الأخرى ، وبينها اشتراك في مظاهر كثيرة ، تستمدتها من اللغة العامة ، ولذا لا تستعصي احداها على الفهم خارج حدودها ، اللهم إلا في حالات العزلة التي تعيش فيها بعض القرى والأماكن النائية أو الأقاليم التي تفصلها عن بعضها عن بعض ظروف جغرافية واجتماعية ، فإنها تؤدي إلى ظهور سمات تفرد بها لهجاتها ، وقد تستعصي على فهم غيرها من البلاد النائية عنها قرية كانت أو مدينة .

وحين تتجاور اللهجات الخاصة في المدن الكبرى ، والقرى المجاورة لها ، تزيد درجات التأثر ، ففي داخل المدن يكثر الاختلاط بين الطبقات ، ويحاول الأدنى تقليد الأرقى ، ومع ذلك تبقى لكل لهجة خصائصها المميزة .

وسكان القرى المجاورة للمدن يحاولون التخلي عن خصائص لهجاتهم وتقليد لهجات المدينة ، لأن حضارة أهل المدن ، وثقافتهم تجعل الرغبة في تقليدهم ملحة لدى الريفيين .

وقد أجريت بحوث في هذا الحقل أوضحت عوامل

(1) فنديس : اللغة ص 329 .

(2) نفسه ص 330 .

(3) نفسه ص 335 .

(4) نفسه ص 325 .

ولهجة قريش تغلبت على سائر لهجات الجزيرة العربية ، قبل الإسلام لتحقيق النفوذ السياسي ، والاقتصادي ، والديني لها .

ويمكن أن تنشأ على اثر ذلك لغة مشتركة تحمل خصائص اللهجة المتغلبة ، وما بقي من خصائص اللهجات الأخرى المنحدرة .

وهذا التوحد اللغوي يخضع لعوامل كثيرة أهمها :

1) العامل السياسي :

فخضوع عدة مناطق لنظام سياسي واحد ، يؤدي إلى تقارب لهجاتها ، ثم توحيدها في لغة عامة ، فالساسة والحكام يجرّدون أحاديثهم العامة في مختلف المناطق من المظاهر الصوتية ، والصوفية ، والمعجمية ، وغيرها مما يختص باللهجة قرية أو مدينة معينة ، أو طائفة حرفية ، حتّى ولو كان الحاكم من أبنائها ، ليكون ما يوجه إلى الشعب مفهوماً لدى كل الطبقات الاجتماعية .

وتلاحظ أن عاصمة الدولة تكون محط أنظار قاطني المناطق الأخرى ، فيحاولون تقليد لهجتها ، والتخلي عن ما تنفرد به لهجاتهم الأصلية .

ومن هنا تنشأ لغة عامة خالية إلى حد كبير من خصائص اللهجات المحلية .

ويمكن أن تمثل لذلك بامتداد نفوذ الفرنسية ، التي كانت لهجة باريس ، ثم انتشرت في جميع البلاد الداخلة في المجال السياسي الفرنسي ، واللاتينية صارت لغة إيطاليا المشتركة وأخيراً لغة العالم الغربي بأسره⁽⁵⁾ تبعاً للنظام السياسي ، وذلك في الامبراطورية الرومانية القديمة⁽⁶⁾ .

وعدم خضوع الدولة لنظام سياسي واحد يضع الصعوبات في طريق التوحد اللغوي (فألمانيا التي ظلت

قرونا ولايات مستقلة سياسياً وبدون عاصمة مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة)⁽⁷⁾ .

وكانت تبدو آثار اللهجات المحلية في عامية متعلمي الألمان ، حتّى في أيامنا هذه أكثر من غيرها من البلاد الأوربية⁽⁸⁾ . (ولذا قام انتشار اللغة الألمانية المشتركة فيها على أسباب مستقلة عن كلٍ وخدة سياسية ، فألمانية المشتركة أولاً وقبل كل شيء لغة كتابة تدين بنجاحها إلى أسباب دينية ، كما تدين بأصلها إلى الرغبة في الاستعمار ، وكانت هناك حركة مارتن لوتر ، وترجمته للكتاب المقدس ، وهناك لغة المستشاريات في المدن والامارات الألمانية ، والألمانية كانت تحتل الأراضي السلافية قدما بقدماً ، وتحتل محل اللغات السلافية فتكررت الألمانية المشتركة ، في مدن الاستعمار في ألمانيا الشرقية ، تلك اللغة التي وصلت بفضل الإصلاح الديني إلى أهميتها الأدبية واستقرت بفضل اكتشاف المطبعة ، وصارت لغة الكتابة في ألمانيا المثقفة بأسرها⁽⁹⁾ .

2 - العامل الاجتماعي والاقتصادي :

تقوم بين جماعات الشعب روابط النسب ، والمصاهرة ، ويلتقون للتجارة ، وتبادل المنافع في شتى المجالات ، وقد تنشبت بينهم المنازعات وهذا يؤدي إلى اختلاطهم ، وقوة الاتصال بينهم ، ولذلك أثره في التقريب بين اللهجات وظهور لغة عامة تتخلص من السمات التي تنفرد بها كل لهجة .

ومن الأمثلة التي توضح اثر هذا العامل ما حدث للهجات الجزيرة العربية من توحد - في لغة عامة - قبل الاسلام بجوالي قرن ونصف أو قرنين من الزمان لما كان بين أهلها العرب من ارتباط في النسب وعلاقات المصاهرة الوثيقة ، والجوار ، والتعامل التجاري وغيره من الصلات الاجتماعية .

(5) نفسه ص 329 .

(6) د. السران : اللغة والمجتمع ص 174 .

(7) فندريس : اللغة ص 333 ، 334 .

3 - العامل الأدبي :

الأدب وسيلة مهمة من وسائل التوحد اللغوي ، فالأدباء من قصاص ، وشعراء يكتبون أديهم بلغة يفهمها جميع الشعب - بمختلف طبقاته ليروج ويذيع ، وتلك اللغة التي يكتبون بها تتخلص من الخصائص المتعلقة باللهجات المحلية ، لأي إقليم من أقاليم الدولة ، وهذا يهيء سبيل التوحد للهجات الجماعات المتعددة .

وقد سادت عند العرب لغة عامة صيغ بها النثر والشعر الذي غصت به الأسواق الأدبية ، كعكاظ ، والمريد ، وذو الحجاز ، وكم جرى التنافس والمبارزة بين الشعراء ، في هذه الأسواق ، ليحكم لهذا بالتفوق على ذلك ، وكانت تلك الأشعار مصدر امتاع للجواهر العربية ، وساعد ذلك على ظهور لغة مشتركة بين العرب جميعا ، قامت على أساس اللهجة القرشية ، وما استفادته من غيرها من محاسن اللهجات الأخرى .

وفي أوروبا (توجد لهجات مشتركة من أصل أدبي محض ، مثل الإيطالية ، التي استقرت لغة مشتركة ، ابتداء من القرن الرابع عشر بفضل هبة الكتاب العظام ، وتأثيرهم مثل : دانتي وبتراكي وبوكاشيو ، وذلك في وقت لم يكن لايطاليا فيه أية وحدة سياسية ، وأغلب الظن أن هؤلاء الكتاب ، استعملوا اللغة التي كانت تتكلم حولهم ... واللغة التي رفعها دانتي إلى مرتبة اللغة الأدبية ، والتي صارت لغة ايطاليا المشتركة كانت أولا وقبل كل شيء لغة مدينة هي فلورنسا ولغة المجتمع الراقي في هذه المدينة) (8)

4 - وسائل الاعلام :

لوسائل الاعلام كالاذاعة والتلفزيون ، ودور الخيالة (السينما) والمسارح ، والصحافة وغيرها أثرها في التوحد اللغوي ، فهي لسان حال الأمة ، والمعبر عن أغراضها السياسية والاجتماعية ، وهي تستخدم لغة أشبه بأن تكون عامة فيها يسمع أو يكتب على سواء ، في الأقطار العربية (8) نفسه ص 335 .

(9) نفسه ص 328 ، 329 .

— مثلا— تستخدم الفصحى ، وبعض الأساليب العامة التي يفهمها الجميع .

وتلك الوسائل - بلا شك - لها خطرها في التأثير على الناس ، وتكوين لغة عامة .

5 - المدن الكبرى :

للمدن الكبرى أثرها في نشوء لغة مشتركة ، إذ تتطلع إليها أنظار سكان الأماكن المجاورة لها ، والبعيدة عنها ، فيكثر القادمون إليها من كل صوب ، وهم - حين يلتقون داخل تلك المدن - يحاولون - عادة - التخلي عن سمات لهجاتهم الأصلية ، ويميلون إلى استخدام لغة عامة يفهمونها جميعا ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنهم يلتقون بالسكان الأصليين لهذه المدن أدركنا إلى أي حد يمكن أن تبرز لغة عامة يستعملها الجميع .

فالدور الأساسي الذي آل إلى أئتنا بعد سقوط الامبراطورية الفارسية أَدَّى إلى ظهور لغة مشتركة مستمدة من اللهجة الآتيكية ، ولكن زاد من قوة الآتيكية ، واشاعها ، شهرة شعرائها وفنانيها ، فكان لأئتنا - بوصفها مركزا سياسيا وأديبا وفنيا على السواء - شرف تأسيس اللغة المشتركة التي ظلت منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، حتى القرن التاسع بعد الميلاد أداة للتفكير عند جميع الاغريقيين (9) .

ولقد تكونت الإنجليزية المشتركة في مدينة لندن التي ساعد موقعها على أن تكون ملتقىً لمختلف اللهجات (إذ أن تكون اللغة المشتركة صادف وقوعه فترة نمو لندن المفاجئ ، حيث أخذت تتلقي بين أحضانها طوائف المهاجرين ، على اختلافهم ، يفدون عليها من كل الأقاليم ويمتزجون بالسكان السابقين ، هذه الهجرات أدت إلى شحن اللغة المشتركة بآثار اللهجات ، حتى لنبجد نطق الإنجليزية في القرن السابع عشر لم يشب بعد ، وأنه يشتمل على عدد كثير من وجوه الخلاف ، ولا تزال بقايا منه موجودة حتى اليوم ، ولكن هذه الهجرة الإقليمية

الفصحى التي تضيق هوة الخلاف بين اللهجات الدارجة المنتشرة فيه .

ولا تنسى أن نشير إلى أن اللغة المشتركة التي تنشأ عن الأسباب السابقة ونحوها ، لا تتخلص نهائيا من خصائص اللهجات المحلية ، بل تبدو آثارها فيها ، وتنعكس عليها . ويتجلى هذا الأثر واضحا ، في العربية الفصحى المعاصرة ، واللهجات العامية المتفرعة عنها .

وقد أشرنا من قبل إلى ما تحويه اللغات المشتركة في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا من آثار اللهجات المحلية التي شاركت فيها .

2 - المنافسة بين اللغات :

يتحقق ذلك في السلم ، والحرب .

في السلم :

تتولد العلاقات بين الشعوب ، للحاجات الاجتماعية المتعددة ، في نواحي الاقتصاد ، والثقافة ، والعلوم ، وغيرها من المجالات ، فيجري بينها التعاون الزراعي ، والصناعي ، والعلمي ، ونقل الخبرات ، والمستحدثات .

وهذا التعاون المتعدد النواحي ، يقتضي لقاءات متعددة بين أفراد ، وجاعات من تلك الشعوب ، وهذا يؤدي إلى احتكاك لقائهم ، وتبادلها التأثير والتأثير .

فقد استفادت العربية من الفارسية بعض المفردات والأساليب ، المتعلقة بمظاهر الحضارة ، والأشياء التي لم تكن موجودة عند العرب ، ومن اليونانية بعض مصطلحات الفلسفة والعلوم .

كما أخذت الفارسية من العربية بعض المصطلحات العلمية والدينية ، وقد استمدت الإسبانية من العربية كثيرا من المفردات ، بسبب إقامة العرب هناك بعد الفتح الإسلامي ، للأندلس أحقابا طويلة⁽¹²⁾ .

انعشت تبادل السكان بين العاصمة ، والأقاليم ، ذلك التبادل الفيد الذي أدى أجل خدمة لانتشار اللغة المشتركة ، وإذا فأنجلترا تدين أيضا بتوحيد لغتها توحيدا نسبيا إلى أهمية عاصمتها⁽¹⁰⁾ .

وفي مدينة القاهرة ، تتراحم اللهجات من مختلف أقاليم الجمهورية بلقاءات أصحابها ، ولذا تميل إلى التوحد فيما يشبه أن يكون لغة عامة يفهمها الجميع .

6 - الدين والعلم والثقافة والخدمة العسكرية :

فالدين يجمع الناس حول كتاب واحد يقرءونه ، ويتبعون به ، ويطبقون أحكامه ، ويدعوهم إلى الاجتماعات العامة في الصلوات ، والأعياد والحج وغيرها ولذلك أثره الكبير في التوحد اللغوي .

ولاشك أن العلم والثقافة والخدمة العسكرية ، تؤدي دورها في اتخاذ لغة عامة .

فدور العلم والثقافة ، وطلابها الذين يقدون من مختلف الأقاليم ويلتقون في المدارس والجامعات ، وقصور الثقافة ، والمكتبات وما شاكلها ولقاءات الثكنات العسكرية ، كل ذلك له أثره في تخلي هذه الطوائف عما لا يفهم من لهجات ، ويتجهون بذلك إلى لغة عامة .

وقد حاول تيمورلنك أن يصنع لغة لجيشه تسهل مهمة قواده ومع فشل تلك المحاولة فأنها تدل على احتياج الجيوش إلى نظام لغوي مفهوم لدى أوساطها المتباينة⁽¹¹⁾ .

وفي إطار هذه الأسباب الداعية إلى توحيد النظام اللغوي ، فإن العالم العربي قد توفرت له علاقات كثيرة اجتماعية ودينية وسياسية وأدبية وثقافية ، وربطت بين أرجائه ، الإذاعة والتلفزيون ، والصحافة ، وسبل المواصلات ، فبرزت لغة مشتركة تمثل في العربية

(10) نفسه ص 331 ، 332 .

(11) د. نجما : اللهجات العربية ص 24 - 26 وانظر د. السران : اللغة والمجتمع ص 172 ، 175 .

(12) انظر اللغة والمجتمع د. السران ص 177 .

وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا الخ» وقضت على لهجاتها الأولى⁽¹⁵⁾.

والفرنسية تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها في بلجيكا وسويسرا وهكذا فالمنطقة التي توجد فيها العاصمة تغلب على البلاد المجاورة لها ، فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) في القسم الذي يتحدث الفرنسية في مقاطعة (والونيا) ولتيز تلك المقاطعة بالنفوذ والسلطان تغلبت اللغة الفرنسية على القلامندية (لغة القسم الشمالي من بلجيكا)⁽¹⁶⁾.

والفرنسية في مقاطعة بريطانيا تغلبت على اللغة البريطانية شيئا فشيئا ، إذ شاركت في كل نواحي الحياة ، الدينية ، والخدمة العسكرية ، والتعليم ، في المدارس ، والنواحي الاقتصادية ، ولا يمكن للبريتانية أن تساوي الفرنسية في القوة ، والثقافة ، والحضارة ، ولذا يمكن التنبؤ باندثار البريتانية ولكن ذلك يتوقف على تمسك البريطانيين بلغتهم ، وتعصيم لها ، وعلى كثرة عدد المتكلمين بها⁽¹⁷⁾.

أما إذا كان الأمر بالعكس ، بأن تفوق الشعب المنتقل إليه نفوذ أو سلطانا أدى ذلك إلى خضوع المهاجرين ، وربما تلاشى لسانهم الأصلي ، في غمار لغة هذا الشعب الجديد (في مستعمرة الكاب كان المهاجرون الفرنسيون من البروتستانت في سنة 1688 يكونون ربع سكان المستعمرة ، ولما كانت الهولندية وحدها هي اللغة المسموح بها في الأمور العامة ، والسياسية ، والدينية ، فقد اختفت الفرنسية بعد مضي قرن واحد)⁽¹⁸⁾.

ويذكر (بلومفيلد) أن الأسرات الأوربية التي نزحت إلى أمريكا ، وأقامت بها إقامة دائمة لا تلبث طويلا حتى

(13) د. وافي : علم اللغة ص 232 ، وما تأخذه لغة عن أخرى ينحصر للصقل ، والتهديب ، حتى يجري على طريقة اللغات المنقول إليها.

(14) د. السرمان : اللغة والمجتمع ص 178 ، 179 .

(15) د. وافي : اللغة والمجتمع ص 110 .

(16) نفسه ص 112 .

(17) فندريس : اللغة ص 352 - 355 بتصرف .

(18) نفسه ص 350 .

وكلمة الشاي قد انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة جزر (ماليزيا) التي كانت المصدر الأول لهذه المادة ، وكذلك كلمة (الطباقي) انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة السكان الأصليين لأمريكا⁽¹³⁾.

وفي اللغات الأوربية كلمات مشتركة أصلها ايطالي أو ألماني أو انجليزي منها أسماء وحدات كهربائية مأخوذة من أسماء مخترعها مثل : (أمبير) Ampere - (فولت) Volt - (أوم) Ohm) بل نجد كثيرا من الكلمات الأوربية تنتشر في لغات غير أوربية ، كأسماء بعض المخترعات ، والآلات مثل : راديو - تلغراف - تليفون - تليفزيون - سينما - فيلم - بيانو... الخ⁽¹⁴⁾.

وقد تأخذ العلاقات الودية صوراً أخرى تدخل فيها اللغات في صراع عنيف ، ويتم ذلك بطرق أهمها :
1) أن تنتقل طوائف من العلماء ، أو الصناع ، أو المثقفين ليشركوا في نهضة الحياة ، لدى شعب شقيق أو صديق .

2) أن تهاجر جماعات من شعب زاد نموه السكاني ، إلى شعب آخر مجاور .

وفي هاتين الحالتين يكون التأثير والتأثير عابدا ، كما ذكرنا من قبل .

وقد يأخذ هذا الاتصال طابع السيطرة ، والنفوذ ، إذا كان المنتقلون أقوى سلطانا ، أو حضارة ، ممن نزحوا إليهم ، أو زاد عددهم بدرجة كبيرة تجعل وجودهم يزداد قوة ، وثباتا وتأثيرا فتطغى لغتهم ، وربما تغلبت على اللغة التي تنافسها (فالألمانية امتدت على رقعة واسعة مما يجاورها من المناطق في أوروبا الوسطى : «سويسرا

ومن ذلك - أيضا - سيادة الانجليزية في أمريكا الشمالية ، وسيادة الفرنسية في أنحاء كندا وفي جزر الجوادلوب والمريتينك وغيرها وهذه الظاهرة ممكنة الحدوث حتى إذا كان الغزاة أقل عددا بكثير بشرط أن يكون رقيهم الحضاري والاداري والاقتصادي ساحقا⁽²¹⁾ .

ويذكر بلومفيلد أن قلة عدد الغزاة قد يؤدي إلى انتصار لغة المغلوبين عسكريا وسياسيا ، فهؤلاء القلة من الغزاة يهضمون بعد زمن ما في البيئة الجديدة ، غير أنها بعد انتصارها تصبح مثخنة بآثار ذلك الصراع المرير ، فلا تكاد اللغة الغازية تندثر أو تزول حتى تكون قد تركت في اللغة المغزوة جروحا ، أو ندوبا هي في الحقيقة بعض الصفات التي استعارتها من لغة الغزاة .

ومن ذلك النورمانديون الفرنسيون حين غزوا الجزر البريطانية واستطاعت الانجليزية - في النهاية - أن تقهر الفرنسية ونحل محلها ، بعدما أصاب الفرنسية تشوه في أصواتها ، وتجديد في بعض أساليبها⁽²²⁾ .

وقد تنكشف لغة المغزوين وتزوي في ناحية من بيئتها وتحصن فيها فتعيش اللغتان الغازية والمغزوة جنبا إلى جنب كما حدث للغة الكلتية بعد غزو الانجليز السكسون للجزر البريطانية ، فقد حلت الانجليزية محل الكلتية في بقاع كثيرة من تلك الجزر ولكن الكلتية ظلت حتى الآن سائدة في بعض جهات (ويلز)⁽²³⁾ .

وقد يتمسك المغلوب بلغته ، ويقف في وجه الغالب سدا منيعا لا يتزحزح عنها ، فلا تتمكن لغة الغالب من السيطرة عليها .

فإنجاه الايرلنديين إلى إحياء لغتهم الوطنية يعود - كما يقول فندريس - إلى بواعث سياسية ، وهي التخلص من لغة الانجليز أعدائهم التقليديين⁽²⁴⁾ .

تصطنع لغة البيئة الجديدة مشوبة في أول الأمر ببعض أصوات لغتهم الأصلية وأساليبها ، ثم لا يكاد يمر عليهم جيل من الزمن حتى يسيطر أبناؤهم أو أحفادهم على اللغة الأمريكية ، ذلك لأنها تمثل - في نظر معظم المهاجرين - اللغة العليا ولأنها اللغة التي تقضي مصالحهم في البيئة الجديدة ، وتساعدهم على الاندماج وتحسين أحوالهم اجتماعيا ، واقتصاديا⁽¹⁹⁾ .

وفي الحرب :

قد يغزو شعب شعبا آخر غزوا عسكريا ، فتدخل لغتاها في صراع يحتدم بينهما أمدا طويلا ، وهذا واضح في لغات الشعوب التي اشتركت في الحرب العالمية الأولى ، فقد استفاد بعضها من مفردات الأخرى ، نتيجة لطول الاحتكاك ، والاتصال بينها .

ومن الممكن أن تنتصر احدهما إذا تهيأت لها أسباب النصر :

1) فتنتصر لغة الغالبين إذا كانوا كثيري العدد ، أو كانت حضارتهم وثقافتهم أرقى من المغلوبين .

فتزوح الغازي بأعداد كبيرة ، يؤدي إلى القضاء على طابع الشعب المغلوب وسماته ويصحب ذلك سلطان القوة ، التي تفرض لغة الغازي ، في تصريف شئون الدولة ، والادارة ، والعلوم ، والثقافة ، وهذا يؤدي إلى انكماش لغة الشعب الأصلي ، وتدهورها .

وإذا كانت حضارة الشعب الغازي أقوى أذى ذلك إلى انصراف الشعب المهزوم عن لغته ، وهجرها ، بتقليد اللغة الأرقى .

ومن ذلك أن اللغة العربية انتشرت اثر الفتوحات الواسعة في آسيا وإفريقية ، وتغلبت على كثير من اللغات الأخرى ، كالبطبية والبربرية .

(19) د. أنيس : من أسرار اللغة ط 3 ص 100 ، 101 .

(20) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 128 .

(22) د. أنيس : من أسرار اللغة ص 99 ، 100 .

(23) نفسه ص 100 .

(24) فندريس : اللغة ص 350 .

وكذلك التناثر بعد اسقاطهم بغداد اعتنق أكثرهم الاسلام وتعلموا اللغة العربية⁽²⁷⁾.

وتظهر آثار المنافسة بين اللغتين المتجاورتين ، أو المتصارعتين - عادة - في المفردات⁽²⁸⁾ وقد يحدث تأثير في النظام الصوتي والصرفي ، ونحن نعرف أنه كثيرا ما لوحظ في لغات مختلفة أصلا ومتجاورة جغرافيا وجود خصائص صوتية مشتركة وكذلك الحال بالنسبة للنظام الصرفي⁽²⁹⁾ فقد انتشرت بعض النواحي الصرفية من الفنلندية إلى اللغات الهندية الأوربية الأخرى (السلافية والبلطية)⁽³⁰⁾.

وقد ينسخ نظام الجمل ، وبذلك ينتقل ترتيب الكلمات أحيانا من بعض اللغات إلى لغات مجاورة لها ، فالألمانية النساوية - مثلا - تسير على حربة كبيرة في ترتيب الكلمات ، وذلك تحت تأثير اللغات السلافية⁽³¹⁾ ، وفقدان النمو نتيجة حتمية لصراع اللغات⁽³²⁾.

وعندما يقضى على إحدى اللغات فإن ألفاظا كثيرة تعزها من اللغة الغالبة وينالها كثير من التحريف في ألفاظها الأخرى ، ودلالاتها ، ثم لا تلبث القواعد أن تتغير شيئا فشيئا⁽³³⁾.

وتترك اللغة المغلوبة آثارها على اللغة الغالبة ، وكما طال أمد الصراع⁽³⁴⁾ وقوي كانت التشوهات أكثر

ومثل ذلك ما حدث من تمسك الفرس بلغتهم ، إذ كان الفتح العربي قد أدخل اللغة العربية إلى بلاد فارس ، حتى أصبح العلم والأدب والسياسة جميعا لا تعرف تعبيرا غير العربية ، وتقلص ظل الفارسية ، فأصبحت رطانة للطبقة الدنيا من الفلاحين ، والرعاة ، وصغار التجار والصناع ، ولكن العصبية الشعبية استيقظت منذ القرن الثالث الهجري ، وبدأت مع الدويلات الإسلامية الشعبية التي قامت في فارس حركة احياء وبعث للغة الفارسية⁽²⁵⁾.

(2) أما إذا حدث العكس بأن كان المغزؤون أكثر حضارة ، فإن لغتهم تبقى صاحبة السلطان ، وربما قهرت لغة الغزاة ، وصرعتها على ألسنة أهلها .

(فإرادة الاغريق في ألا يضحوا بلغتهم أمام فاتح يحقرونه هي التي حفظت الاغريقية خلال العصور ، فلم تستطع التركية يوما أن تحل محلها ، أو حتى أن تنال منها ، ... فالتركية وهي لغة الفاتحين ليست بأية حال من لغات الحضارة ، وما كانت تستطيع الكفاح ضد اللغة الاغريقية ، التي تمثل ثقافة من أعرق الثقافات)⁽²⁶⁾.

وكما حدث عندما هاجمت القبائل المتبريرة أوروبا اللاتينية ، التي كانت شعوبها أكثر تقدما في الحضارة ، ولذا ترك هؤلاء البرابرة لغاتهم الأصلية ، بل تركوا أديانهم الوثنية واصطنعوا اللاتينية واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية ،

(25) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 128 ، 129 .

(26) فندريس : اللغة ص 351 .

(27) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 127 .

(28) فندريس : اللغة ص 353 .

كبعض الكلمات الخاصة بالبيئة الجديدة من أعلام أو أسماء الأمكنة ، ومن ألفاظ تعبر عن أشياء تتميز بها هذه البيئة كما حدث للرومانية حين قضت على معظم لغات أوروبا ، وللعربية حين قضت على القبطية في مصر ، وقد أشرنا إلى بعض ذلك فيما سبق ، انظر : د. أنيس : من أسرار اللغة ص 100 وص 50 من هذا البحث .

(29) فندريس : اللغة ص 361 ، 364 .

(30) نفسه ص 361 ، 364 .

(31) نفسه ص 359 .

(32) نفسه ص 363 .

(33) د. وافي : اللغة والمجتمع ص 100 وما بعدها .

(34) يحتاج الصراع إلى وقت طويل قد يبلغ أربعة قرون ، فالرومان تغلبوا على وسط أوروبا وشرقها في القرن الأول الميلادي ، ولم تصل =

عمقا ، وظهورا ، فقد ضاع من الإنجليزية أكثر من نصف ثروتها اللفظية ، في صراعها الذي انتصرت فيه على النورماندية الغازية ، واستعاضت عن هذا المفقود من اللغة الغازية المهورة ، وأخذت منها كذلك مفردات جديدة ، ومع طول الصراع بين العربية ، والقبطية ، والبربرية ، لم تؤثر تلك اللغات في العربية تأثيرا قويا ، لأن الصراع لم يكن شديدا ، ولم تكن هناك مقاومة تذكر من اللغات المغلوبة .

ويميل بعض اللغويين إلى القول بأن آثار الاحتكاك ، والصراع بين اللغات تظهر إذا كانت من فصيلة واحدة ، أو من فصيلتين متقاربتين ، أما إذا كانت غير مشتركة في الأصل ، فإن الآثار الناجمة عن الاحتكاك والصراع آثار محدودة ، لاسمها فيما يتعلق بالبنية ، نادرا ما تؤثر لغة أو تغلب على أخرى ليست من فصيلتها⁽³⁵⁾ .

ونتيجة لتجاور اللغات وصراعها ، قد لا تبقى اللغة الواحدة على حالها بل تتغير ، وربما انقسمت إلى لهجات لاتساع الرقعة التي تعيش عليها ، ولاتصالها بلغات أخرى أو انتصارها عليها ، واختلاف البيئات المكانية ، والزمانية ، والثقافات المتعددة ، التي تغلب عليها من الشعوب المتكلمة بها ، وانتقالهم من جيل إلى جيل ، كما حدث للعربية في نمو المتكلمين بها ، وتغليبهم على المناطق المجاورة في مصر والشام ، والعراق . وكما حدث للألمانية في امتدادها على مساحة واسعة في أوروبا الوسطى ، فكل ذلك أدى إلى تغلب تلك اللغات على لغات البلاد الأصلية ، ونجم عنه تفرق العربية والألمانية إلى لهجات .

ولهذا القانون خضعت اللغات الانسانية منذ نشأتها إلى العصر الحاضر .

تعقيب :

عرضنا في كلامنا السابق صورة واقعية لما يعرض للغة

جماعة انسانية ، ورأينا أنها تنشأ تلبية لحاجاتهم الاجتماعية ، ووفقا لظروفهم ، فهي تمثلهم حضاريا وثقافيا وفكريا ، ثم ان ألفاظها المعبرة عن مقصودهم ، تأخذ الطابع المميز لتلك الجماعة الانسانية ، وتتطور حسب احتياجاتهم ، وما يعرض لهم من ظروف جديدة قد تطرأ عليهم ، في انقساماتهم الاجتماعية داخل المنطقة التي يعيشون فيها ، أو نتيجة اتصالهم بالشعوب الأخرى للتجارة أو الهجرة أو الحرب ، أو غيرها من وسائل الاتصال المتعددة ، ويمكن أن تبدو لذلك آثار بعيدة المدى في سلوك اللغة ، واتجاهاتها ، بين الجماعات الانسانية المختلفة وتبدو ملاحظتنا في صور تعبر عن الجانب الاجتماعي ، وأثره في السلوك اللغوي ، وهي كما يلي :

أولا : اللغة صورة لحياة الأمة :

ليست اللغة أداة صناعية خارجة عن علاقاتها بالمجتمع الذي تعيش فيه ، بل هي صورة له ، نابضة بالحياة ، فإذا كان المجتمع متخلفا ظهرت آثار التخلف في لغته ، فهي متخلفة معه ، وإذا كان مجتمعا راقيا بدا الرقي في لغته كذلك ، فالشعوب البدائية يتكلمون لغة مادية لا تعرف الفكر ، أو المعاني الكلية ، انها لا تعرف أكثر من المحسوس ، لتعبر عنه ، فالهندي الأحمر في أمريكا لا يستطيع — في تعبير لغوي — أن يجد اسما للشجرة ، دون أن يعرف لونها الأحمر ، أو الأسود ، في شجر معين كالبلوط . وبعض العشائر البدائية لا تسعفها لغتها على التعبير ، فيلجأون إلى الاشارات بأيديهم ، وأرجلهم ، وأعينهم حتى انهم إذا أرادوا التحدث ليلا أوقدوا النار ، ليرى المخاطب حركاتهم ، فيعرف ما يريدون ، وهذا اللون من اللغات يقل فيه التفرع اللغوي ، كالاشتقاق ، وغيره مما يعبر عن المعاني المجردة .

أما الشعوب الراقية ، ذوات الثقافة والفكر ، فتحمل لغاتها سمات حياتها العامة ، والخاصة ، كاللغات الهندية

■ لغتهم إلى الغلب النهائي إلا حوالي القرن الرابع الميلادي . والعربية لم تغلب على القبطية والبربرية إلا بعد أحقاب طويلة ، بل انها بقيت مستعملة في أداء الطقوس الدينية . وبعض اللغات البربرية لاتزال تستعمل حتى العصر الحاضر .

(35) د. وافي : اللغة والمجتمع ص 97 - 110 ، د. السمران : اللغة والمجتمع ص 179 - 181 .

والأوربية ، واللغات السامية ، التي تستطيع أن تعبر في صور متعددة ، وعبارات لا تحتاج إلى الاشارات كذلك السابقة لها ، بل ان اللغة العربية تنجح إلى العقلية والخيال ، والتعبير عن الشيء منظورا إليه من جهات متعددة .

فاللغة سجل يعي حضارة الأمة على مدى تاريخها الطويل ، ويمكن على هذا الأساس فهم طبيعة حياتها ، ومعرفة الكثير عن وجودها الحضاري .

فالعربية - في أول حياتها - كانت تعيش حياة بدوية خالصة في صحراء الجزيرة . ولذا تحمل ألفاظها سمات تلك المرحلة ، فكلمة (الفصاحة) أخذت - أساسا - من اللبن الفصيح - وهو الذي زال رغوؤه - وكلمة (البلاغة) أخذت من البلوغ إلى غاية المسير وكلمة (المجد) أخذت من امتلاء بطن الدابة بالعلف ، وكلمة (القطار) كانت تطلق على عدد من الابل تسير في نسق واحد .

فإذا درسنا تلك الألفاظ ، وتطوراتها ، وجدنا أن اللفظين الأولين (الفصاحة والبلاغة) استعمالا فيما بعد لحسن الكلام ، وجودته ، ثم استعمالا مصطلحين لأجادة المنطق ، في علم البلاغة الذي ظهر بعد وضع قواعد اللغة ، وعكوف العلماء على دراستها ، في عصر يدل على نضج تفكير الأمة ، وادراكها لقيمة لغتها .

وبعد تحضر العرب نقلوا لفظ (المجد) من معناه القديم ، فأصبح يطلق على امتلاء جياة الشخص أو الجماعة بالمعاني النبيلة ، ولما تطورت الحياة عند العرب في العصور الحديثة ، واستخدموا الآلات الصناعية في نقل البضائع ، والأحياء من بني الانسان ، وغيرهم من مكان إلى آخر نقلوا اسم آلة السفر التي كانت للصحراء - وهي (القطار) من الابل - للنقطار من العربات المعهود الآن .

فلو تتبع الباحث اللغوي دلالات الألفاظ ، واشتقاقاتها . وتراكيبها اللغوية لعرف تطور الحياة ، والفنون عند الجماعة الناطقة بها .

ثانيا : اللغة تتغير تبعا لظواهر الاجتماع :

للظواهر اللغوية وتغيرها أثر في مفردات اللغة ، وتراكيبها .

(1) أثرها في المفردات :

1 - معانيها :

لا ريب أن كل جماعة انسانية تضع الكلمات للأغراض التي تريد التعبير عنها ، فيوضع لفظ لمعنى ، أو لعدة معان . ويوضع غيره كذلك لمعان أخرى ، وهكذا .

وتبدأ اللغة بسيطة . ثم تتطور ، وتعمق ، فالمعروف أن الطفل عندما يريد أن يدل على حيوان يخاف منه فإنه يسميه (هوهو) أو (عو) أو نحو ذلك مما يطلقه عليه . ثم بعد أن يميز شيئا فشيئا يستطيع أن يفصل بعض المعاني عن غيرها . والمسمايات عن نظائرها . فيطلق اللفظ المحدد على ما يريد بدقة . وهكذا فالشعوب تطلق الألفاظ على ما تريد حسب طبيعتها . رقايا . وانحطاطا . فالألفاظ البدائية محسوسة المعاني . والراقية ترقى معها الأفكار التي تحملها .

وكلمة (الفرج) كانت لكل شق ، ثم خصصت في الاسلام بما هو معروف عند الانسان ، واللمس كان معروفا في اتصال شيء ، بآخر ثم كنى به الإسلام عن الجماع كقوله تعالى : «أو لامستم النساء» .

ومن هنا نلاحظ تطور المعنى تبعا لتطور الحياة الاجتماعية ، ومتطلباتها .

2 - أصواتها :

لا ريب أن الأصوات التي تتألف منها الألفاظ صورة لحياة الأمة ، فهي جافية غليظة ، في أمة خشنة ذات وعورة . نحيبا حياتها الأولى . فمثلا : حياة الصحراء تحتاج إلى الأصوات العالية . لأن الحفوت يضجع وسط هذا الفراغ الهائل . ولذا كانت خشونة الأصوات داعية لوصفها إلى من يريد . وعلى هذا كان العرب الصحراويون يأتون إلى النبي ﷺ ، وينادونه بأصواتهم

و هناك أصوات تخفف حتى تتلاشى ، كأصوات اللين الطويلة والقصيرة في مثل (عل ومحمد حضر امبارح) .
ونلاحظ في دراسة اللهجات العربية ، القديمة ، والحديثة . ما يقيدنا في هذا المجال ، ويلقي ضوءا قويا على حياة البداوة ، والحضارة في عصورها المختلفة .

3 - حياتها وموتها :

هناك ألفاظ في اللغة يكتب لها أن تعيش ، ويستمر وجودها للحاجة إليها . ولصلاحيتها للتعبير عن مرادها ، وذلك مرهون باستمرار ما يراد منها ، وقد ينتقل معناها تبعاً للحاجة الاجتماعية الا أنها تستمر لصلاحيتها لذلك أيضا ، وقد يموت معناها تبعاً للتغيرات الاجتماعية التي تبطل هذا المعنى أو تؤدي إلى تغييره فتموت الألفاظ أيضا . فأسماء كثير من آلات الحرب وغيرها قد بطلت نتيجة لبطلان استعمالها ، وكذلك بعض الألفاظ الخاصة بأجزاء الغنائم . في الجاهلية التي أبطلها الاسلام ، مثل : المرباع والصفايا وغير ذلك من الألفاظ .

وفي بعض الأحيان يحيا اللفظ بعد موته ، فقد أحيا الأديباء والعلماء في العصور الحديثة كثيرا من الألفاظ القديمة . للحاجة إلى معانيها ، وتبعاً للمخترعات الصناعية التي تستلزم بعض المصطلحات ، ومن هنا وجدناهم يعيدون إلى اللغات كثيرا من الألفاظ المهجورة ، وهذا يضيف جزءا كبيرا من التراث اللغوي كان مهملا ، فيعيد إلى اللغة جزءا مفقودا من ثروتها . وكثير من الألفاظ التي وجدت في الغرب تسير على هذا الطريق ، وتشمل مصطلحات متعددة في الصناعات والفلسفات والعلوم .

ولذا نلاحظ أن اللفظ يحيا في عصر ، ويموت في عصر آخر تبعاً للنظم الاقتصادية ، والحياة الاجتماعية في أطوارها المختلفة فلفظ (الاشتراكية) كان معروفا في اللغة إلا أنه لم يدر استعماله بمثل ما دار به في هذا العصر ، ولفظ التراشق بالنيران لم يكن يلاحظ قبل اندلاع حرب السويس . ولفظ (صاحب المعالي) أو (صاحب السعادة) كان شائعا قبل الثورة . ثم أختفى كل منهما بقيامها .

المرتفعة ، فحاول الإسلام أن يرفق منها في الحواضر - كمكة والمدينة - حيث العمران ، والمدينة . والحضارة . التي يناسبها خفض الصوت ، فبه القادمين على أن الأصوات العالية لا تليق في مكان لا يحتاج إلى علوها . قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط أعمالكم وانتم لا تعلمون . ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» . وقال سبحانه : «ان أنكر الأصوات لصوت الحمير» .

ونلاحظ في الحركات أنها تأخذ الشكل المناسب لحياة البدويين ، والحضرين . فالحركات القوية - كالضمة - يميل إليها البدويون لمناستها بحياتهم . على حين أن حياة المدينة الرتيبة الوداعة داعية إلى الأصوات الرقيقة . والحركات المشاكلة لها . كالكسرة . التي قالوا أنها علامة المؤنث . وامارة الرقة . وصغر الحجم .

وكلما انتقل المجتمع من حال إلى حال تتطور الأصوات اللغوية . ففي اللهجات العربية الحديثة وجدنا صوت (القاف) العربية يتطور في القرى إلى صوت (الجيم) مثل : (قال) تنطق (جال) وفي المدن - كالقاهرة وطنطا - تنطق (همزة) فتصبح (آل) . ووجدنا في القرى (الضحك) - بضم الصاد . وفي المدن (الضحك) بكسرها . لأن الضمة تناسب مجتمع الصلابة . والخشونة . على حين أن الكسرة تجتمع الرقة . والحياة الناعمة .

وقد تحدث تبدلات للأصوات عند بعض الناس تبعاً للبيئة التي تصبغ الألفاظ بصيغاتها . فمثلا نجد في الصعيد من ينطقون (جاموسة) ، (داموسة) . ومن يقول هناك (لع) بدلا من (لأ) في مجتمع المدينة . و(لا) في العربية الفصحى .

وتبدلات الأصوات أحدثت ثورة عنيقة في اللغة العربية واللغات الانسانية - بعامه - وتحتاج دراستها إلى جهود تكشف عن تطورات الألفاظ ، وعلاقتها . ومدى تأثيرها بالتقدم الحضاري .

4 - اضافة ألفاظ جديدة :

تستحدث اللغة بعض الألفاظ للحاجة إليها ، فقد يكون المجتمع بدائيا ، ثم يتطور ، وتكبر معه المخترعات ، وحاجات الحياة ، وقد لا تنهض ألفاظ اللغة بذلك ، فتخترع ألفاظ تستعمل في هذه النواحي ، والارتجال ظاهرة لغوية فعالة تحدث عنها العلماء ، وقد قال ابن جني : إن العربي الفصيح يرتجل ، ويكون ذلك باحياء ألفاظ قديمة ، أو بالاشتقاق منها ، ويمكن أن تنشأ بعض الألفاظ دون سابق وجود لها ، وهذا يقع في اللغات الأجنبية ، وفي لغتنا العربية ، وفي لهجاتنا العامية كثير من تلك الألفاظ المخترعة تبعا لحاجات الحياة النامية .

5 - اقتراض الألفاظ :

تبعا للعلاقات التي أشرنا إليها بين لغة قوم وآخرين ، سلمية كانت أو حربية : فإن ألفاظا من لغات الطرفين تنتقل إلى كل منهما ، وتستعمل في التبادل اللغوي ، ويدخل في ذلك ما يسمى في العربية بالتعريب ، فاللغة التي تأخذ بعض الألفاظ تحاول اخضاعها لقوانينها الصوتية ، وموازينها البنائية ، حتى تشاكلها ، وتجري على لسان أربابها ، فبعض الأصوات لا يوجد في لغة ما ، ويوجد في غيرها كصوت P في اللغات الهندية الأوربية ، ففي الفارسية مثلا - (پندق) عرب إلى (فندق) بالفاء ، و(پرند السيف) إلى (فرنده) بالفاء أو (برنده) بباء خفيفة .

وقد يحدث اتصال لغة بأخرى عدوانا على نظمها الصوتية ، وطغيانا على ألفاظها ، فتحل ألفاظ من اللغة الغالبة محل نظائرها من ألفاظ اللغة المغلوبة ، ويكثر ذلك ، فتمزق مجالاتها الصوتية ، وتستولى عليها ، وتقضي عليها في النهاية ، ويترك هذا الصراع آثارا في اللغة الغالبة فتشوه بعض صوتياتها ، ومفرداتها وهذا يتوقف على حدة الصراع ، وامتداد زمانه بحيث يتناسب معه تناسبا عكسيا .

(36) د. حسن ظاظا : اللسان والإنسان ص 121 .

(37) نفسه 120 .

ب) أثرها في التراكيب والقواعد :

الزمن ، والصلات بين المجتمعات ، والحياة بمظاهرها المتعددة ، كفضيلة بتغيير الأوضاع اللغوية ، وتراكيبها ، فالرجل البدائي - كالطفل - لا يملك قوة العبارة ، أو سلامتها وسلاستها بل يركبها حسبما يشاء له تفكيره الساذج ، وتبدو عليها الهلهلة والسقم ، لأن حياته ليست رتيبة ، ولا نظام فيها ، وعندما يسمو تفكيره ، تسمو لغته ، وتصبح دقيقة التعبير ، منسقة المسالك .

وتراكيب اللغات عرضة للتغير ، وقواعدها النحوية والصرفية عرضة لذلك أيضا ، يقول بعض الباحثين : أن الأمم القديمة كانت تصنع الجمل في الوقت الذي تصنع فيه الفكرة التي تحملها ، وهي لذلك محتاجة إلى ملاحقة الجزئيات ، وأدوات الفصل ، والوصل ، وأنواع الزوائد التي (تجاوب مع حركات عقلية جزئية تختلج في الفكر في لحظة التعبير على حين أن المتكلم باللغات الحية المعروفة يكاد يفرغ من تكوين فكرته داخليا ، قبل سبكها في قالب الكلام ، فيقل فيها ما يشعر بهذا الجهد الداخلي في بناء الفكرة نفسها)⁽³⁶⁾ ومن هنا ضاع الاعراب في اللهجات العامية العربية ، وفي معظم اللغات البشرية كما هو المشاهد الآن .

ويذكر الباحث السابق أن الانتقال من التركيب المعرب إلى التركيب الموقوف يعد ظاهرة حتمية في تطور اللغات⁽³⁷⁾ .

كذلك الأوزان التصريفية عرضة لهذا التبدل والتغير ، فمثلا (غار فهو غائر) - من غار على عرضه بمعنى : تمسك بجأيته - يقال : في التعبير العامي (غبران) - على فعلان - خلافا للوزن العربي ، وصياغة المضارع اختلفت طرائقها في القديم والحديث كما نشاهد في عاميتنا ، ولغتنا الفصحى .

كذلك الغزو اللغوي يمكن أن يترك آثارا في أساليب

بجانب جماعته التي ينتمي إليها - في ضوء العوامل ،
والظواهر الاجتماعية التي تتصل باللغة ، وبسلوك أفراد
الجماعة ، ويدرس المعنى ، والألفاظ في ظلال التاريخ
اللغوي .

ويتناول اللغة من هذين الجانبين الوصفي ، والتاريخي
يتبين أن اللغة تعد مميزا فرديا ومميزا طبقيًا ، فيمكن أن
تدرس اللغة والسياسة - اللغة والاقتصاد - اللغة والدين
الخ ، وعلى اثر ذلك نستطيع أن ندرس مراحل التطور
اللغوي وصلته بالمجتمع ، وآثار احتكاك اللغات
واللهجات .

وقد كان علماؤنا القدامى في دراستهم للغة يفعلون هذا
الجانب المهم ، وهو الجانب الاجتماعي - ومن ثم جاءت
تفسيراتهم - في بعض الأحيان - غير سديدة ، ولكن
بعض علماء الغرب تبعوا للمدرسة الاجتماعية التي أسسها
(أميل دوركيم) أدركوا أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، فحاولوا
دراستها على هذا الطريق ، وحذا حذوهم بعض علماء
العرب في العصر الحديث .

اللغات فيغير بعضها ، مثل ما نسمع في العامية (هات
واحد شاي) وأصله (أعطني كوبا من الشاي) - (قابلي
اثنين من الشبان) والتعبير العربي (قابلي شابان) .

ومثله تسرب بعض الأساليب والتعبيرات الأجنبية إلى
العربية ، مثل : (ذر الرماد في العيون) و(لعب دورا هاما)
ونحو ذلك مما يمكن تتبعه في اللغات الانسانية .

وهذا اللون من الدراسة يكشف عن المنهج الصحيح
لدراسة اللغات الانسانية بتتبع سيرها التاريخي ، وما
يحدث فيها من تغيرات في معانيها وأصواتها ، وتراكيبها ،
وما يفقد منها ، أو تستفيده بعضها من بعض .

ويمكن للباحث أن يدرك كيف يستطيع المجتمع أن
يوجه اللغة إلى الطريق الذي يسير فيه ، وأن يخضعها
لعوامل المحافظة ، والبقاء ، أو الانقسام والموت .

ويمكن - على هذا المنهج - أن تدرس اللغة في ظل
علم الاجتماع وأن تعرف طرائقها الاجتماعية .

فتدرس اللغة دراسة وصفية ، تتناول الانسان من
حيث نشأته ، وتدرجه في جماعة معينة وأثره في اللغة -